

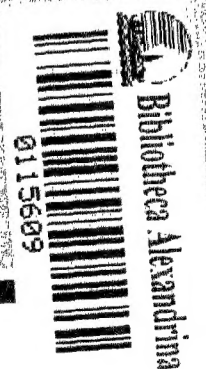
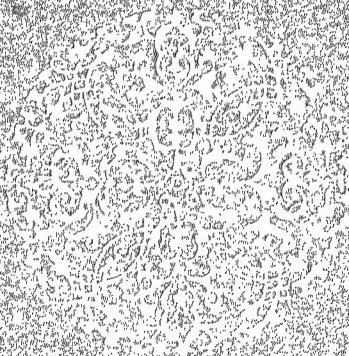
فاطمة جمعة

الاتجاهات الحزبية

في

الإسلام

منذ عهد الرسول حتى عصرنا الحاضر



دار الفكر العربي
بيروت

الاتجاهات الحزبية في المجتمع الإسلامي

« منذ عصر الرسول حتى خلافة بني أمية »

فاطمة محمد



دار الفكر العربي
بيروت



دار الفكر العربي

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
تاسيس : ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٩٣

المقدمة

ما اختلف المسلمون في أمر من الأمور ، اختلفهم في نظام الحكم وطريقة تطبيق هذا النظام في المجتمع الاسلامي . فهذا الاختلاف الذي شغل الحيز الأكبر من مسرح الحياة السياسية منذ وفاة الرسول مباشرة ، كان السبب الأساسي في انشقاق المسلمين على انفسهم وتفرقهم شيعاً وأحزاباً . وهذا ما عبّر عنه الأشعري بقوله : « اختلف الناس بعد نبيهم ، صلى الله عليه وسلم - في أشياء كثيرة ضلّل بعضهم بعضاً وبرىء بعضهم من بعض ، فصاروا فرقاً متباينين واحزاباً مشتتين ، إلا أن الاسلام يجمعهم ويشتمل عليهم » .

وهذا الخلاف الذي نشأ بين المسلمين ، كان الدافع الأساسي الذي اطلع هذه الفرق المتباينة . ولا يخفى ان السياسية منذ وجودها كانت أداة تفرقة وخلاف . وهكذا كان فقد كثرت الأقوال وتعددت الآراء في صورة النظام وهوية القيمين عليه وذهب كل فريق من المسلمين في رؤيته للأمور مذهباً معيناً ، وكان لكل مذهب ، من العامة والخاصة شيعة تنادي به ، وتتعصب له وتبته بين الناس سرّاً أو علانية حسب الظروف المؤاتية .

ومالبث الأمر أن تعاظم واتسعت الفجوات ، فتعددت الروايات ، واختلفت الأسانيد وكثرث الأحاديث عن الرسول (صلعم) لمناصرة النزعات السياسية التي كانت تتنافس آنذاك .

ولذلك فان أية دراسة تبحث في الاتجاهات الحزبية في المجتمع الاسلامي وخاصة منذ عصر الرسول حتى خلافة بني امية لمن ادق المواضع واكثرها حساسية في التاريخ الإسلامي . ذلك أن موضوع نشأة الاحزاب السياسية الاسلامية قد تعرض له كثير من الدارسين والبحاث وتناوله العديد من المؤرخين والنقاد ، وحاول كل واحد من هؤلاء ان يتوصل الى الحقيقة التاريخية في هذا المجال . ولكن نظراً لتشابك الاحداث والمؤثرات وضخامتها في هذه الفترة من تاريخ الدولة الاسلامية كان من العسير على اي باحث الالمام بمختلف النواحي والعوامل والاحداث التي في تلك الفترة أو دراستها بشمولية كافية .

على أن ما حدا بي للخوض في هذا الميدان الواسع هو التوصل إلى جزء من اجزاء الحقيقة التاريخية آملة في إضافة حلقة من حلقات تلك السلسلة التي تتكامل بمثل هذه الدراسات . واما ما استهواني في هذا الموضوع فهو التعامل مع فكرة الحزبية التي شغلت مسرح الحياة السياسية الإسلامية منذ وفاة الرسول (صلعم) ولا تزال حتى يومنا هذا ، تلك الفكرة التي تعتبر موضوعاً تتهيأ له الأرض الخصبة في كل مكان وزمان .

وقد حاولت في هذا البحث ان اتعرض لنشأة الحزبية السياسية ، وذلك بالعودة الى جذورها التاريخية المتمثلة بالعصبية القبلية التي تميزت بها نفسية العربي قبل الإسلام ، ثم تتبعت مسارها مع نشأة الدين الاسلامي وتأثيرها بعد ظهور الاسلام ، ودورها في قيام الاحزاب السياسية التي انتجت الفرق الإسلامية فيما بعد .

وقد رافق هذه الدراسة شعور بلذة البحث والتنقيب اوجدته المسالك الوعرة والشائكة الناتجة عن تعدد المصادر التاريخية وما رافق ذلك من تضارب في الروايات أو تعارض في بعض الأخبار ، او تعاطف لطائفة دون غيرها ، او ميل لإثبات اتجاه معين . ولا يخفى ان اكثر هذه المصادر قد وضعت متأخرة بعض الوقت عن زمن الأحداث التي تؤرخ لها وكان من مراميها مناصرة الدولة الحاكمة ، ودعم سلطة

الحكام في احيان كثيرة .

لذلك كان لابد من توخي الدقة والموضوعية في اختيار الاحاديث والاخبار كما هو مفروض في أي بحث علمي ، وتغليب المنطق ، والابتعاد عن التأثيرات العاطفية والدينية والسياسية .

وتمشيا مع التسلسل التاريخي للأحداث قسمت الدراسة كما يلي :

الباب الاول : يتناول جذور الحزبية السياسية من خلال :

بلاد العرب قبل الاسلام - العرب وأنسابهم - النظام القبلي والعصبية القبلية .

الباب الثاني : يتناول ولادة الحزبية السياسية من خلال :

الاسلام وفكرة الحزبية - الخلافة ونشأة الحزبية السياسية .

الحزبية وأبعادها في عهدي ابي بكر وعمر .

الباب الثالث : يتناول وضوح الرؤية الحزبية من خلال :

الفتنة الكبرى وأبعادها الحزبية - صفين والاحزاب السياسية - نشأة الفرق الاسلامية. فعسى أن تحقق هذه الدراسة شيئاً من ربط أواصر المحبة في هذه الفترة التي كثر فيها التناحر وتنوعت الأزمات وكادت الصراعات المتنوعة تتناول كل الشؤون الحياتية .

على أن هذه الدراسة المتواضعة لم يكن ليكتب لها الظهور إلى حيز الوجود لولا التشجيع الخيّر والتوجيه المخلص والرعاية المباركة من المشرفة الكريمة الدكتورة زاهية قدورة ، فلها جزيل الشكر واطيب آيات المحبة والتقدير .

كما أخص بالشكر والتقدير الدكتور طريف الخالدي الذي بذل جهداً طيباً في الإرشاد والتوجيه لانجاز هذه الدراسة .

فاطمة جمعة

الباب الاول

جذور الحزبية السياسية
فترة ما قبل الاسلام

الفصل الأول

بلاد العرب قبل الاسلام

تمهيد :

لا بد للباحث في تاريخ نشأة الاحزاب السياسية في المجتمع الإسلامي من العودة الى تاريخ الشعوب العربية قبل الاسلام ، ومحاولة التعرف الى طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي عاشها العرب في الجاهلية اي العصر الذي سبق الاسلام ، ذلك ان نشأة تلك الاحزاب في المجتمع الاسلامي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظم والتقاليد من جهة ، ونمط الحياة التي مارسها العرب في الجاهلية من جهة ثانية . وقد بقي أثر ذلك واضحاً في المجتمع العربي حتى بعد ظهور الاسلام .

فالانسان ، في حياته الفردية ، والاجتماعية ، هو الى حد بعيد نتاج الماضي . وكل مشكلة من المشكلات التي تعترض حياته لها جذورها واسبابها البعيدة . فالمذاهب المتنافرة والعقائد المتناحرة التي تقسم الافراد والجماعات والامم وتدفع بهم الى العداء والتخاصم والتنازع ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باحداث الماضي .

فالعرب هم سكان شبه الجزيرة العربية ويطلق العلماء العرب عليها اسم

« جزيرة العرب »^(١) .

« وشبه الجزيرة العربية ليس بين اشباه الجزر واحدة تضاهيها في المساحة فهي اكبر شبه جزيرة في العالم »^(٢) « وهي اقليم في الجنوب الغربي من اسية »^(٣) .

وقد حددها الهمداني بقوله : « جنوبيها اليمن وشمالها الشام وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل الى القلزم وفسطاط مصر ، وشرقيها عمان الى البحرين وكاظمة والبصرة وموسطها الحجاز وارض نجد والعروض »^(٤) .

والمقصود ببلاد العرب في هذا البحث الجزيرة العربية التي يحدها من الغرب البحر الاحمر ومن الجنوب البحر العربي ، ومن الشرق خليج فارس ، وهي تمتد في الشمال لتشمل بقاعاً قامت فيها دويلات عربية كالمناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام ومن قبلهم الانباط في بترا وتدمر .

« وبلاد العرب خمسة اقسام : تهامة ، الحجاز ، نجد ، العروض واليمن »^(٥) .

١ - ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٠ .

« وانما سميت بلاد العرب جزيرة لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع اقطارها » كذلك البكري يحدها بقوله : « سميت جزيرة العرب جزيرة لان بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة احاطت بها وهي ارض العرب وهبتها » .

البكري : كتاب معجم ما استعجم الجزء الاول المقدمة ص ٦ .

والهمداني يقرر : « وتسمى جزيرة العرب لان اللسان العربي في كلها شائع وان تفاضل »

الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١ .

٢ - حتي ، جبور : تاريخ العرب المطول ص ٢٩ .

٣ - Encyclopédie de l'islam, tome 1 P 555 .

٤ - الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١ .

• - البكري : كتاب معجم ما استعجم الجزء الاول المقدمة من ص ٥ - ٥٩ . وقد اورد ياقوت في معجم البلدان تحديداً لكل قسم من اقسام شبه الجزيرة العربية .

تهامة : تسائر البحر منها مكة ج ٢ ص ٤٣٧ .

الحجاز : او جبل السراة سمته العرب حجازاً لانه حجاز بين الغور وهو تهامة وهو هابط و بين نجد

=

ج ٣ ص ١٠١ .

على ان المنطقة التي يجري التركيز عليها بوجه خاص هي منطقة الحجاز ؛ فاهمية الحجاز تكمن في انها كانت قاعدة بلاد العرب التجارية والدينية ، كما غدت مهد الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية فيما بعد . فهذه المنطقة تقع على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشام ، وعلى هذه الطريق تقع مكة اشهر مدن الحجاز حيث جعلها عرب الحجاز قاعدة لتجارتهم^(١) .

ويلى مكة من حيث الاهمية « يثرب » التي اطلق عليها فيما بعد اسم المدينة . وهي تقع شمالي مكة ؛ اشتهرت بمياهها وخصب اراضيها وقد سكنها العمالة واليهود والأوس والخزرج . ويليهما الطائف ذات المناخ الجميل ، وكانت مصيف الحجاز وقد سكنتها هوازن^(٢) .

أما شهرة مكة ومركزها الكبير فيعود الفضل فيها الى الحركة الاسلامية . غير ان ذلك لا يعني ان الاسلام خلق مكة من العدم . فلقد مرت قرون عدة على وجود هذه المدينة ، قبل ظهور الاسلام كما كان لها شأن خطير في دنيا العرب قبل مجيء الرسول .

تتمتع مكة بموقع جغرافي ممتاز فهي واقعة على خط القوافل الذي يربط بلاد الشام بسواحل المحيط الهندي فكانت محطة للوافدين من جنوب الجزيرة وللمتحدرين من شمالها . ولما كانت مكة في واد غير ذي زرع ليس فيها إلا بشر زمزم ، لذلك استحال على سكانها الاشتغال بالزراعة فانصرفوا الى ممارسة

= نجد : اسم للارض العريضة التي اعلاها تهامة واليمن واسفلها العراق والشام ج ٨ ص ٢٥٣ .
 العروض : سميت بذلك لانها معترضة في بلاد اليمن والعرب ما بين تخوم فارس الى اقصى ارض اليمن مستطيلة مع ساحل البحر . ج ٦ ص ١٦٠ .
 اليمن : ما اشتمل عليه حدودها ما بين عُمان الى نجران ثم يلتوي على بحر العرب الى عدن وسميت اليمن الخضراء لكثرة اشجارها وثمارها وزرعها والبحر يطيف بها من المشرق الى الجنوب ج ٨ ص ٥٢٣ .

١ Lammens, la mecque à la veille de l'Hegire P P. 116-118.

٢ Lammens, le berceau de l'islam P P. 9-76.

التجارة^(١) . وقد سيطرت خزاعة زمناً على مكة الى ان قام في قريش قصي وهاجم خزاعة وانتزع منهم الزعامة . والى ذلك الحين كانت قريش مجموعة عائلات وبيوتات متفرقة تعيش في الاماكن المجاورة لمكة تؤمن عيشها من تربية المواشي^(٢) فقبيلة قريش كانت اشهر من سكن مكة وابوها النضر بن كنانة . وقد رأى بعضهم انها سميت قريشاً لاشتغالها بالتجارة .^(٣) وقد عرف القرشيون كيف يستغلون موقع مكة الممتاز وسرعان ما اصبحت تجارتها ماهرة تجاوز نشاطهم حدود الجزيرة العربية . فقد كانت قوافل قريش معروفة عند العرب لانهم سكان مكة وحماة الكعبة التي يقدسها العرب ويحجون اليها . وقد كانت التجارة من اهم العوامل في اتصال العرب بمن حولهم من الامم وخاصة بالنسبة لقريش فلم يكن العرب قبل الاسلام امة منعزلة بل كانت على اتصال وثيق بالحضارات القائمة في جوارها من فارسية ورومية ومصرية . فالقرآن الكريم يذكر عناية العرب بسياسة الفرس والروم ويشير الى اتصالاتهم الاقتصادية بغيرهم من الامم . فسورة الروم تبتدىء بهذه الآيات « الم . غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء »^(٤) .

وفي سورة قريش « لا يلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »^(٥) شارة الى نشاطهم

١ - ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ١٤٢ .
« مكة مدينة في واد والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي . . . وليس بمكة ماء جار ومياهها من السماء وليست لهم ابار يشربون منها واطيبها بئر زمزم » .

وللتفصيل انظر : الازرقعي : اخبار مكة ج ٣ ص ١٧ « ومكة تحيط بها جبال وسميت مكة لقلعة مائها » .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٣٠ - ١٣١ .

٣ - المصدر السابق : ج ١ ص ١٠٣ (التقرش : التجارة والاكتساب) .

٤ - القرآن الكريم : سورة الروم الآيات (١ - ٥) .

٥ - القرآن الكريم : سورة قريش .

الاقتصادي واتصلهم بغيرهم من الامم . فقد كانت إحدى هاتين الرحلتين الى الشام وبلاد الروم ، والأخرى إلى اليمن والحبشة وبلاد فارس . وفي هذا الصدد يذكر ابن اسحق « وكان هاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء والصيف . . . ثم هلك هاشم بن عبدمناف بغزة من أرض الشام تاجراً . . . ثم هلك المطلب بردمان من أرض اليمن . . ثم نوفل بسلیمان من ناحية العراق » (١).

والى جانب الاتصال الاقتصادي كانت هناك سُبُل عديدة لاتصال العرب بمن جاورهم من الأمم الأخرى ؛ منها إنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم ، حيث تكونت إمارة الحيرة على تخوم فارس . وكان عرب الحيرة صلة الوصل بين الفرس وعرب الجزيرة ، « يحملون اليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم ويشرون بالفرس ومدنيّتهم » . كذلك نشأت إمارة الغساسنة على تخوم الروم . وقد ساعدت البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب وتدعو الى دينها وتنشر تعاليمها على هذا الاتصال (٢).

ولكن التجارة لعبت الدور الأكبر والأهم في حياة العرب عامة وقبيلة قريش خاصة . فلم تكن الناحية المادية هي الوحيدة التي استفاد منها القرشيون الشيء الكثير ، بل كان هناك احتكاك بكل معنى الكلمة بين البيئة الجاهلية والمدنيتين الفارسية والبيزنطية ففتحت امام قريش افاقٌ ظلت مغلقة في وجه كثيرين من العرب . وهكذا نرى قريشاً تسبق البادية مسافة كبيرة في حقل التنظيم ففيها منظمات كالمجالس النازرة في امورها المتمثلة بدار الندوة التي لا تقضي قريش امراً من امورها الا فيها ، ولديها الوظائف كالحجابة واللواء والسقاية والرفادة (٣).

ولقد كان لمكة مكانتها الدينية الى جانب اهميتها التجارية . فقد كانت

١ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٤٧ و ١٥٠ .

٢ - احمد امين : فجر الاسلام من ص ١٦ الى - ٢٧ .

٣ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٤١ .

وابن عبد ربّه : العقد الفريد مجلد ٣ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

الكعبة في مكة بيتاً لآلهة قريش حتى قيل إنه « كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً »^(١) . ويظهر ان السبب من وجودها ؛ « ان قريشاً رأت ان تنتفع من فودوم القبائل العربية في موسم الحج فوضعت اصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة »^(٢) فقد كان الوثنيون يؤلفون السواد الاعظم من العرب . وقد زعم بعض المؤرخين « أن أول من غير دين اسماعيل عليه السلام ، فنصب الاوثان عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الازدي وهو ابو خزاعة »^(٣) « فلما صنع هذا عمرو بن لحي دانت العرب للأصنام واتخذوها »^(٤) . وقد اتخذ العرب لكل قبيلة ، بل لكل اسرة ، الهة خاصة بها . وكان يعبر عن هذه الآلهة العديدة رموز أهمها الأصنام . واقدم هذه الاصنام « مناة » وكانت العرب جميعها تعظمها . وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة يعظمونها . ثم اتخذوا « السلات » بالطائف والعزى ، وكانت اعظم الاصنام عند قريش . ثم « هبل » أعظم اصنام قريش في الكعبة . وكان لهم ايضاً « مناف » فيه كانت تسمى قريش « عبد مناف » . فلم تنزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبي فأمر بهدمها .^(٥)

وفي القرآن الكريم ان مكة كانت مقر بيت الله الحرام منذ زمن ابراهيم واسماعيل ، ثم دُئسها العرب بالأصنام فجاء النبي وأعادها سيرتها الاولى .^(٦)

والى جانب الوثنية فقد انتشرت الديانة اليهودية في شبه الجزيرة العربية ، وذلك عن طريق البعثات التي كانت تفد الى الجزيرة وقد اعتنقت اليهودية قبائل

١ - الازرقى : اخبار مكة ج ١ ص ٧٦ .

٢ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٧٠ .

٣ - ابن الكلبي ؛ كتاب الاصنام ص ٨ .

٤ - المصدر السابق : ص ١٣ .

٥ - المصدر السابق : ص ١٣ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ٢٧ - ٣٢ - ٥٨ .

٦ - القرآن الكريم : سورة البقرة الايات ١٢٧ - ١٢٨ .

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .

كثيرة فمهدت بذلك الطريق إلى الإيمان بالله الواحد . « وكان لليهود مستعمرات في تيماء ، وفي فذك وفي خيبر وفي وادي القرى ، وفي يثرب وهي أهمها . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة » .^(١)

« اما النصرانية فقد تسرب منها الى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة . فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام . كذلك كان هناك صوامع في وادي القرى » .^(٢) واهم موطن للنصرانية في جزيرة العرب كان « نجران » وهي بأوسط ارض العرب .^(٣)

كذلك فقد كان في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام جماعة من اهل التوحيد ممن يقر بالبعث كقس بن ساعدة الايادي ورباب السبتي وبحيرا الراهب وكانوا من عبد القيس^(٤) .

وهكذا مع اطلالة الدين الجديد بدا التوحيد اليهودي والمسيحي كحجر اساس لانطلاق الدعوة الاسلامية ، لان العقلية العربية استطاعت ان تستوعب بعض المعطيات حول الله الواحد عبر التعاليم التي نشرها اليهود والمسيحيون . « ولكن الظاهرة المميزة للمجتمع العربي في العصر الجاهلي كانت القلق في التفكير والاضطراب في المعتقدات والعادات وتوثباً نحو السير والانطلاق تعتريه هزات ورجات نتيجة لتفاعل اللغات والديانات والأقوام وتضاربها واختلاطها^(٥) .

١ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٤ .

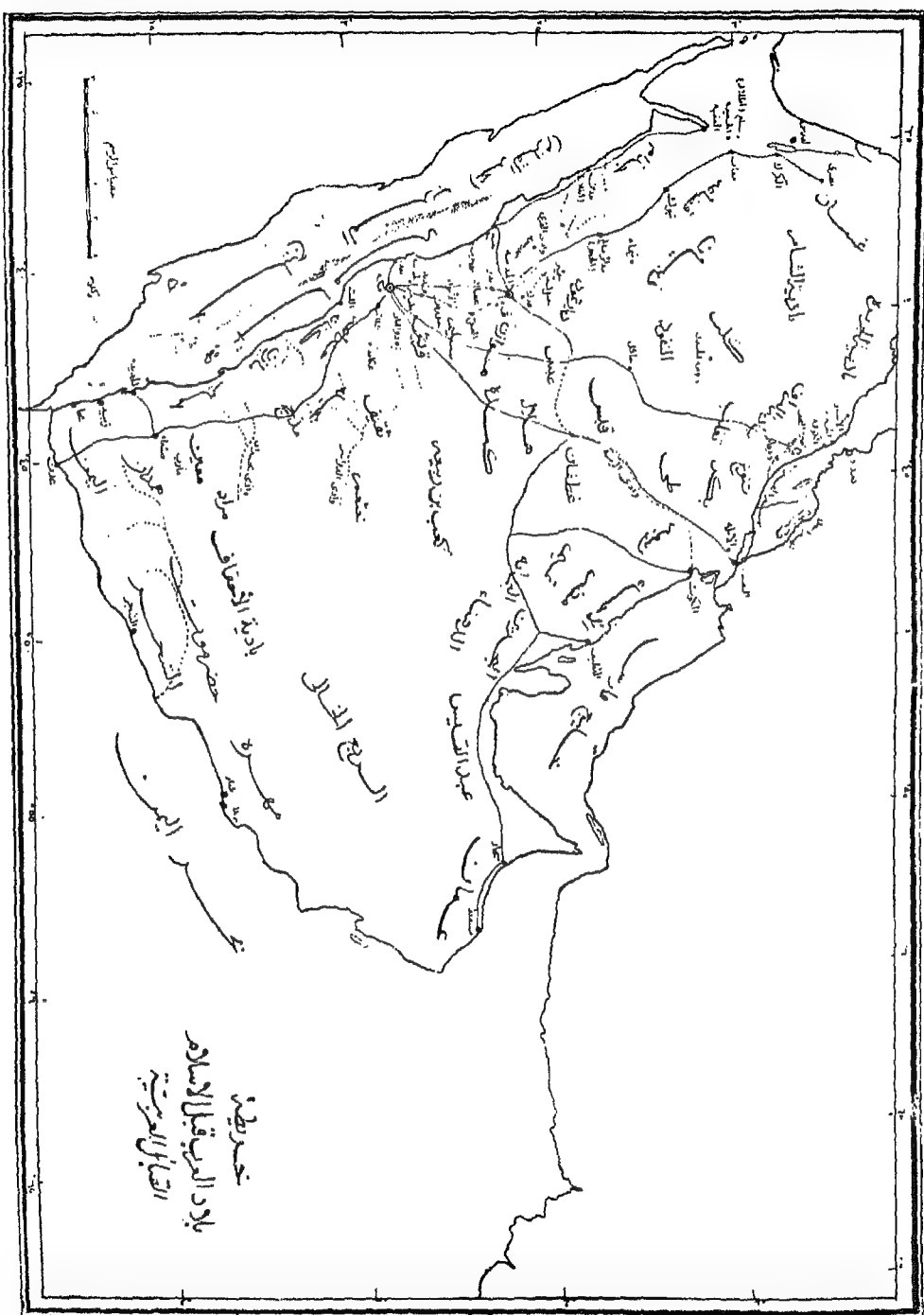
وللتفصيل انظر : Lammens, L'Arabie occidentale avant l'Hegire P P. 51-99

٢ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٥ .

٣ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٩ .

٤ - المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص : ٣٠٩ .

٥ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي ، محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٢٩٩ .



أنساب القبائل العربية
(التي مهدت لقواعد الدولة الإسلامية ونشرت الدين الإسلامي)^(١)

من القحطانية		من العدنانية	
حمير	كهلان	ربيعة	مضر
قضاة و بطونها	الايوس والخزرج	تغلب بن وائل	قريش
كلب	غسان	بكر بن وائل	كنانة
سليح	الازد	شكر	خزاعة
تنوخ	همدان	حنيفة	اسد
بهراء	خثعم	عجل	هذيل
عذرة	بجيلة	ذهل	تميم
وغيرها .	مذحج	شيبان	غطفان
	مراد	تيم الله	سليم
	زبيد والنخع	النمر بن قاسط	هوازن
	الاشعريون		ثقيف
	لخم وكندة		سعد بن بكر
			عامر ابن صعصعة

١ - زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٢ ج ٢ ص ٣٢٣ .

الفصل الثاني

العرب وانسابهم

ان الجماعات التي كونت المجتمع الاسلامي والأحزاب السياسية فيه كانت في غالبيتها من الشعوب العربية . لذلك لا بد لنا من القاء نظرة على تاريخ الشعوب العربية في الجاهلية ، أي قبل الاسلام والتعرف على طبقاتهم وانسابهم .

فقد اهتم العرب كثيراً بالأنساب حتى اننا لا نكاد نعرف أمة من الأمم عنيت بأنسابها عناية الأمة العربية بذلك ، ولم يكن للماضي الأثر الفعال في توجيه الحياة الاجتماعية والسياسية عند أمة من الأمم كالأمة العربية ، بحيث حاولت بعث ماضيها في حاضرها فالعناية بالأنساب كانت من اهم مظاهر العصبية القبلية .

اصل العرب وطبقاتهم :

العرب هم سكان شبه الجزيرة العربية ينحدرون من نسل سام بن نوح عليه السلام^(١) فهم إذن أحد الشعوب السامية .

فقد ذكر السمعاني « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ولد نوح

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٠٦ .

ثلاثة : « حام ، وسام ، ويافث ، فولد سام العرب والروم وفارس والخير فيهم »^(١) .

ويقسم مؤرخو العرب « العرب قسمين عظيمين : العرب البائدة والعرب الباقية »^(٢) .

« فالعرب البائدة : هم الذين بادوا ودرست اثارهم كعاد وثمرود وطسم وجديس وجرهم الاولى وغيرهم . والعرب الباقية وهم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك ، من القحطانية ، كطيء ولخم وجذام ونحوهم ومن العدنانية كفضارة وسليم وقريش وغيرهم »^(٣) اما العرب الباقية فقد قسمها المؤرخون نوعين : « عرب عاربة وعرب مستعربة »^(٤) .

« فالعاربة هم العرب الأول ويقال فيهم : العرب العرباء ؛ وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح »^(٥) .

« فاما قحطان فكان أول من ملك اليمن وأول من سُلّم عليه بـ « ابنت اللعن » كما كان يقال للملوك »^(٦) وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وبطون كهلان^(٧) . واليه ينتسب سكان يثرب قبل الاسلام من الأوس والخزرج .

« اما العرب المستعربة فيقال لهم المستعربة ، وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم . سموا بذلك لأن اسماعيل ، لما نزل جرهم من القحطانية تزوج منهم

١ - السمعاني : الانساب ج ١ ص ٢٠ .

ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٥ .

٢ - القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٠٨ .

٣ - القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٠٨ .

٤ - المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ٢٧٦ .

٥ - القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣١٥ .

٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٠٥ .

٧ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١١ .

وتعلم هو وبنوه العربية فسموا لذلك من المستعربة ، والموجودون من العرب من ولد اسماعيل عليه السلام كلهم من بني عدنان بن أدد «^(١)» .

فاما شعب عدنان فمهدة مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية ، او المضرية او القيسية واليه تنتسب قبيلة قریش^(٢) . وهكذا فقد جرى النسابون والمؤرخون على تقسيم العرب الباقية إلى أصلين كبيرين : القحطانية والعدنانية . وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي موضوع الأنساب . ومما لا شك فيه « أن عرب الجاهلية كانوا يعنون بالأنساب عناية كبيرة لأنها كانت أحد أسباب الألفة والتنافر ودعامة من دعومات النظام السياسي . فالنسب هو الضامن والكفيل للحصول على حقوق المواطنة في المجتمع القبلي الذي تقوم منه القبيلة وفروعها مقام القومية والجنسية الآن »^(٣) فقد كان للنسب شأن خطير في حياة العرب وهو أمر ضروري جداً بالنسبة الى النظام الذي كان سائداً يومذاك ، وقد لمس النسابون شدة تعلق قبائل العرب بأنسابها واعتزازها بأسلافها ومفاخرتها بأجدادها ، فوجهوا همهم إلى علم النسب ، وعنوا به عناية مسرفة وقد تناول العديد من الباحثين والمستشرقين موضوع الأنساب العربية وانقسام العرب إلى قحطانية وعدنانية ، بالبحث والتدقيق ، فتعددت في هذا الموضوع آراؤهم ونظرياتهم .

ومما لا شك فيه أن في القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم »^(٤) وقد ورد عن الرسول (صلعم) دعوته إلى معرفة الأنساب : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة

١ - القلقشندي : صحاح الاعشى ج ١ ص ٣٣٦ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٠٤ والازرقعي : اخبار مكة ج ٣ ص ٣٥ « يقال لبني اسماعيل العرب المستعربة. ويقال لجرهم وقحطان العرب العاربة والعرب العرباء » .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢٧١ .

٣ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٢٢١ .

٤ - القرآن الكريم : سورة المؤمنون اية ١٠١ .

الرحم محبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأثر^(١) ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لانقسام العرب إلى طبقات ولم يرد فيه اسم عدنان ولا قحطان ، وإنما خاطبهم بلسان الرسول على أنهم من نسل اسماعيل وإبراهيم « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملأه إبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير »^(٢) .

ويرجح أن وضع الخليفة الراشدي عمر لديوان العطاء كان أول تنبيه للعرب الى ضرورة العناية بانسابهم وتصنيفها وتدوينها ، ولا سيما أن بناء الدولة كان في ذلك الحين قبلياً ، ونظمها الادارية مستوحاة من هذا النظام القبلي .

فقد ذكر « ان الوليد بن هشام بن المغيرة هو الذي اشار على عمر بتدوين الدواوين وتجنيد الجند وفقاً لما رآه لدى ملوك الشام ، فاخذ عمر بقوله ، ودعا عقيل ابن ابي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم »^(٣) ولكننا لا نجد في الأخبار التي رواها الرواة عن فرض العطاء وعمل الدواوين ما يشير إلى انقسام العرب الى اصليين قحطانية او عدنانية « وإنما اخذ بالقرابة من الرسول وبالسابقة في الاسلام وبالطبقات التي تستند الى أساس الغزوات والفتوح »^(٤) لذلك رأى بعض الباحثين « ان دعوى أهل الأخبار والأنساب بوجود أصليين للعرب : قحطاني وعدناني ، هي دعوى لا تستند الى دليل وان هذه التسمية عرفت في العصر الاموي بعد تحزب الخلفاء والحكومة والناس

١ - السمعاني : الانساب ج ١ ص ٥ .

٢ - القرآن الكريم : سورة الحج اية ٧٨ . ولتفسير هذه الآية انظر : تفسير الطبري ج ١٧ ص ٢٠٥ وما بعدها .

٣ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٦ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢١٠ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٠٩ .

الى حزبين يمن وقيس او يمن ومضر او قحطان وعدنان^(١) .

ففي العصر الأموي كانت كلمة « قيس » ترادف كلمة « مضر » و « معد » و « نزار »^(٢) وقد شجعت الفتن ، التي وقعت في ايام عثمان وفي عهد علي ومعاوية ، على ظهور العصبية بين القبائل ، فتحزبت تلك القبائل ، وتكتلت ؛ فكانت تحارب على أنها همدان او طيء^(٣) او مضر او ربيعة^(٤) او غير ذلك .

كذلك فقد ذهب جماعة من المستشرقين الى ان كلمة « نزار » لم ترد في الشعر الجاهلي المتقدم ، وانها وردت متأخرة جداً بالنسبة الى كلمة « معد »^(٥) .

وهذا ما دفع روبرتسون سميث الى اعتبار المنازعات السياسية في عصر بني امية من ابرز الدوافع لوضع الأنساب العربية . كذلك تجاوز القبائل في الأمصار الجديدة والنزاع القبلي الحاد بين عدنان وقحطان في ذلك العصر^(٦) .

أما المستشرق بلاشير فيرى أن « الضرورات الإدارية والحوادث السياسية وهيبة السلطان ، منذ ولاية عمر بن الخطاب وزمن الامويين ، قد اقتضت تنظيم العلائق بين القبائل العربية ، فوجدت مهارة النسابين وعقولهم المنظمة مجالاً واسعاً للابتكار فاستطاعوا أن يصلوا بواسطة الجدود بين قبائل ليس لها من روابط سوى المجاورة ؛ كسليم وذبيان ، أو روابط المنازعات الداخلية ، كعبس وذبيان . وكان من نتائج هذه التركيبات أن جمعت القبائل العربية المختلفة في الجزيرة في فرعين كبيرين : عرب الجنوب ، وعرب الشمال . »^(٧) .

١ - حواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٢ - Encyclopedia of islam , tome 2 P655 - ٢

٣ - السعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٨ .

٥ - Robertson Smith, kinship and marriage in early arabia P. 6 .

٦ - المصدر السابق ص ٧ - ٨ .

٧ - بلاشير : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٢ .

كذلك فهو يرى « بعض الحالات التي خضع فيها النسابون لاعتبارات حزبية ، او عمل مأجور ، فظهرت أنساب تؤكد كلا الاصلين . ويعود هذا الشك الى العوامل السياسية »^(١) . وهذا ما حدا بالمستشرق ليفي ديلافيدا في حديثه عن أصل نزار ، أن يشك في أن يكون لقبيلة نزار وجود حقيقي تاريخي ، وانما هو اختراع خيالي اختلق لأهواء سياسية ، وأن النزارية هي فكرة سياسية تبلورت في العصر الأموي ، في وسط ذلك الصراع الحزبي وعلى الأخص ما بعد معركة مرج راهط ، وانها لا تمثل حقيقة تاريخية ، فهي لا تعني قبيلة معينة ، ولا مجموعة قبائل أصول بعضها متباينة ، ولكنها كانت مع ذلك تجتمع كلها في معشر واحد هو معد .^(٢) .

ولكن بعض المؤرخين ومنهم دوزي «يذهب الى وجود كراهية شديدة بين كلب وقيس ، أخذت تنتقل من جيل إلى جيل رغم وحدة اللغة التامة والنظم والعادات والأفكار والدين ، بل رغم وحدة « الأصل »^(٣) . ولكن الروايات السابقة للإسلام لم تأت على ذكر شيء من ذلك ؛ فالحقيقة « ان الخصومة قد اشتدت بين قضاة (كلب) وقيس أول الأمر ، لان قضاة كانت متوطنة في الشام من قبل وأن قيساً كانت حديثة عهد بالهجرة الى هناك »^(٤) ولكن العداء زاد بين قيس وكنب بوجه خاص في أيام معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم ، وذلك لان قبائل كلب ، بفضل مصاهرتها لمعاوية الذي تزوج امرأة من كلب ، هي ميسون بنت بحدل ، أصبحت مقربة عند الخلفاء ، مع ان الخلفاء من قريش وقريش من قيس . وكان من أثر ذلك ان غضبت قيس فانحازت الى تأييد ابن الزبير في نزاعه مع مروان بن

١ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة خزاعة بن عمرو والمستشرق كركوف مجلد ٨ ص ٣٠١ - ٣٠٣ ومادة خثعم للمستشرق ديلافيدا مجلد ٨ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

٢ - Encyclopedia of islam tome 3 PP940 - 941

٣ - ر . دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ ص ٧٩ .

٤ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ١٧٦ وللتفصيل في اخبار قضاة انظر : المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٧ .

الحكم ، وقد عرفت معركة مرج راهط بأنها وقعت بين قيس و كلب ، و كلب من اليمن ، وقد انتصرت فيها كلب على قيس . فخلق هذا الانتصار حقداً كبيراً بين قيس وانصارها وبين كلب وانصارها من القبائل التي ادعت انها من اليمن^(١) . وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا للخلفاء . وقد اسهم لخلفاء الذين جاؤوا بعد عبد الملك في هذا النزاع فكان بعضهم يؤيدون القيسيين إذا كانت امهم من قيس وكان اخرون يؤيدون كلبا او اليمن اذا كانت أمهم من اليمن وسار على هذه السياسة الولاة والعمال فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها الى معسكرين قيس ويمين^(٢) . وهو ما يؤكد جولدتسيهر ، الذي يرجع اصول العداء بين عرب الشمال وعرب الجنوب الى المنافسة بين قريش والأنصار ، وهو يرى أن الحروب الأولى التي نشبت بين معد واليمن ، من إبداع خيلة المتأخرين ويقول : « معد ومضر إنما هما الندان للأنصار ، فلما اشتدت العداوة بين القبائل بفعل التطورات السياسية وعقب وقعة مرج راهط انتشرت نزعة عقد الأحلاف انتشاراً كبيراً ، وانتهى الأمر بان انضمت تميم وقيس إلى حزب مضر الكبير . أما أزد فقد انحازت إلى سائر اليمنية الذين دخلت فيهم ربيعة (بكرز) بخراسان ، ثم انضمت إليهم قضاة الشامية (كلب) آخر الامر » .^(٣) وكان أن تشكلت هذه الثنائية بين مضر (تميم وقيس) واليمن (أزد وربيعه) ، وطغت على سائر العصبية ، وكانت المحور الذي يدور عليه العالم العربي كله في ذلك الحين .

ومما لا ريب فيه أن انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين او قيسيين ويمينيين له جذور اجتماعية واقتصادية ، تعود الى الفترة الجاهلية التي سبقت الاسلام . فعرب الجنوب او القحطانيون كانوا أقرب الى المدنية من العرب العدنانية ، لأن بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء ، من بلاد هؤلاء ، فنشأت منهم دول قديمة

١ - Encyclopedia of islam tome 2 P655

٢ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٤٠ .
٣ - دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٠ ص ٤٢ .

أشهرها ممالك سبأ وحير وكهلان^(١) . فالقرآن الكريم يصف ما كان لسبأ من الحياة الزراعية المستقرة الناعمة ومن ضربهم في الأرض آمين ، بقوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور »^(٢) .

أما العدنانيون او المعديون وهم أهل الحجاز وأهل الشمال ، فتغلب عليهم البداوة وعدم الاستقرار ، ويستنتج من أقوال علماء اللغة ان لفظة « معد » تعني الشظف في العيش والغلظة في المعاش والقشف^(٣) . وانها كانت تعني حياة بدوية بعيدة عن كل وسائل الحضرة وترف أهل المدر ، وهذا ، بالنظر لأهل المدن والمستقرين ، نوع من الخشونة لا يحمد الإنسان عليه . « وقد وصفت ملابسهم بالخشونة كذلك تميزت عن غيرها . وقد جاء « عليكم باللبسة المعدية » اي خشونة اللباس »^(٤) .

وقد لاحظ بعض الذين كتبوا في العصور الإسلامية عن العصر الجاهلي ، هذه الفروق في المجتمعات الجاهلية ؛ فقد ذكر ابن العبري « وأما حال العرب في الجاهلية فحال مشهور عند الأمم من العزّ والمنعة . وكان ملكهم في قبائل قحطان وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : أهل مدر وأهل وبر ، فأما أهل المدر فهم الحواضر سكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر فهم قحطان الصحاري ، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلا ، مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هناك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ، ثم

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

٢ - القرآن الكريم : سورة سبأ آية ١٥ .

٣ - الزبيدي : تاج العروس ج ٢ ص ٥٠٣ .

٤ - المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٣ .

يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون في حل وترحال »^(١) . وهكذا كان من أثر الاختلاف والتباين في طرق المعيشة أن انقسم العرب إلى بدو وحضر . وفي كتب اللغة نجد ما يؤيد هذا التقسيم القديم الذي يرجع إلى الجاهلية : « فالحاضرة والحضارة خلاف البادية والبدواة والبدو . والحاضرة والحضرة هي المدن والقرى والريف »^(٢) .

وقد يكون هذا الاختلاف في طبيعة الحياة العربية في الجاهلية وانقسام العرب إلى بدو وحضر هو التقسيم الطبيعي الذي يستند إلى أسس تاريخية « فالاختلاف بين الفرعين الكبيرين فرع القحطانيين أو عرب الجنوب وفرع العدنانيين أو عرب الشمال وكلاهما من أصل واحد (الأصل السامي) وإن تباينا في اللهجة والحضارة ناتج عن التباين في طرق المعيشة واللهجات والحضارة أدنى من ثم إلى اختلاف في الشعور واختلاف في المصالح الاجتماعية والاقتصادية التي وسعت المنافسات آفاقها فيما بعد وجعلت هذا التباين الجزئي كأنه تباين في العنصر والجنس والوطن »^(٣) . وإن انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين والعداوة التي كانت بين الفريقين إنما يعود إلى « النزاع بين الحضارة والبدواة »^(٤) .

» فالملاحظ أن غالبية من حشرهم النسابون في القحطانية هم من المستقرين الذين مالوا إلى إنشاء حكومات مستقرة أو كونوا لهم إمارات ومن أهل القرى والمدن ، أما من حشرهم في العدنانية منهم من القبائل التي كانت تميل إلى البدواة

-
- ١ - ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ص ٩٣ . « وقد قيل للأعراب أي البدو أهل الوبر لأنهم يتخذون من الوبر بيتاً وقيل للمستقرين أي الحضرة » أهل المدر « لأن أمانيهم من المدر » ابن منظور : لسان العرب ج ٣ ص ٤٥٤ كذلك فقد ورد عن الرسول قوله لقيس بن عاسم : هذا سيد أهل الوبر . الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٣ .
 - ٢ - الزبيدي : تاج العروس مجلد ٣ ص ١٤٦ .
 - ٣ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ ، السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .
 - ٤ - أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٦ .

او من القبائل البدوية «^(١) فقد ازدهرت في جنوبي جزيرة العرب مدنيات قديمة وكان لليمن النصيب الوافر من التقدم والتطور فقامت في تلك الانحاء ممالك لا قبائل متفككة الأوصال^(٢) كذلك قامت دولتا الحيرة وغسان ، وقد جرت العادة بتسمية رؤسائها ملوكاً وقد كان للحيرة ولغسان هبة كبيرة في نفوس العرب ، وهما على ما يذكر النسابون من قبائل اليمن اي القحطانيين^(٣) .

ونتيجة للنزاع الذي كان بين البداوة والحضارة رأى بعض الباحثين وجود عداء شديد بين أهل مكة وأهل يثرب أي المدينة قبل ظهور الإسلام ؛ فاهل يثرب وهم يمنيون كانوا أصحاب حضارة وملك ، وأما أهل مكة ومن والاهم فقد كانت البداوة غالبية عليهم فكان من الطبيعي تنازع الجماعتين^(٤) .

فقد كان العرب يحتقرون الزراعة ويرون أن حياة الرعي والتجارة جديرة بالرجل الحر ، فأهل مكة كانوا تجاراً ، بينما أهل المدينة زراعاً وهذا ما جعل الكراهية متأصلة بين القريتين ، ويقال إن الرسول رأى محراثاً في بيت رجل من أهل المدينة فذكر له « انه ما دخل دار قوم إلا دخلها الذل »^(٥) .

ومهما تكن الظروف والأحداث والمؤثرات التي أحاطت بانقسام العرب الى فرعين كبيرين ، وسواء صحت هذه الأنساب أم لم تصح ، فمما لا شك فيه أن الفترة الأموية هي التي شهدت التكتل الواسع النطاق ، حول محوري قيس وعين كما اسلفنا ، وليس من المستبعد ان يكون هذا الانقسام في الفترة الاموية على الأقل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاجتماعية والاقتصادية للعرب في الجاهلية وهي ما عبرنا عنه بالصراع بين الحضارة والبداوة . فقبائل اليمن كانت تؤثر الاستقرار واقامة

-
- ١ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٣٤ .
 - ٢ - المسعودي : مروج الذهب ج ١ من ص ٢٧٨ - ٢٨٧ .
 - ٣ - المصدر السابق ج ١ من ص ٢٨٧ - ٢٩٩ .
 - ٤ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٣٣ .
 - ٥ - صحيح البخاري : ج ٣ ص ١٣٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٧٠٢ .

الإمارات والممالك بينما قبائل قيس أو معد كانت تؤثر الغزو .

فقبيلة الأزد اليمنية لم تشترك في حروب الفتح التي قام بها الخلفاء الراشدون
الآ عهد عثمان وكانوا في خراسان أهم القبائل بعد قيس تميم^(١) ، « بينما كان لتمييم
وهي من قيس شأن كبير في حروب الردة بسبب ما قامت به المتنبة « سجاح » وأن
حملة خالد بن الوليد الشديدة على المرتدين أعادت تمياً إلى أحضان الإسلام ،
فوجدت في الفتوحات الإسلامية التي أعقبت حروب الردة ما يرضي ميولها إلى
القتال ، واتجه أكثر مقاتلة تميم بطبيعة الحال إلى فارس ، ثم إلى خراسان ، وقد
أظهرت تميم في الفتوح ما عرفت به في الجاهلية من حب القتال . وليس من شك
أيضاً أن التميميين وهم بدو أفحاح فطروا على عدم الانصياع للسلطان ، وكان لهم
نصيب كبير في جميع الفتن التي نشبت في عهد الأمويين^(٢) وقد وقعت وقائع دموية
بين « ازد عمان » في البصرة وخراسان وبين تميم . كما استغل اعداء الحكم الأموي
هذه الفرصة ، وسعوا لتوسيع شقة الخلاف ، وحرصوا شعراء الفريقين على
المهاجاة ، وفي وسط هذه المهاجاة تمثلت فكرة « قحطان » و « عدنان » .

فلما نظم « الكميت » قصيدته التي تعرض فيها لليمانية انبرى « دعبل
الخزاعي » للرد عليه وبان لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان بقوله :

هم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا^(٣)

كذلك فقد حاولت « القيسية » و « اليمنية » ضم أكبر عدد ممكن من القبائل
اليها وهذا يظهر في تحير النسابين في أصول بعض القبائل . ومن ابرز الامثلة على
ذلك قضاة فقد « تنوزع في قضاة أمن معد كان أم من قحطان ، فقضاة تأبى ان

١ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة الأزد - مجلد ٢ ص ٣٨ - ٣٩ .

٢ - المصدر السابق - مادة - تميم - مجلد ٤ ص ٤٧٧ .

٣ - المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٠

تكون من معد وتزعم أنها من قحطان «^(١) .

ومهما يكن من أمر هذه الأنساب ، فإن العرب ولا سيما متأخريهم ، اعتنقوها وبنوا عليها عصبيتهم ، وانقسموا في كل مملكة حلوا بها إلى فرق وطوائف حسب ما اعتقدوا في نسبهم ؛ واصبحت هذه العصبية مفتاحاً نصل به الى معرفة الكثير من أسباب الحوادث التاريخية .

١ - السعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٢٩٧ .

الفصل الثالث

النظام القبلي والعصبية القبلية

عرف العرب النظام القبلي منذ اقدم عصورهم ، فهذا النظام كان يسود بلاد العرب كلها ، وكان ملائماً لطبيعة بلادهم التي يغلب عليها الجفاف وتنتشر فيها الصحاري والبادي . فالعرب سواء عاشوا بدواً ام حضراً كان النظام القبلي هو الذي يجمع بينهم . ونقصد بالنظام القبلي ذلك النمط من الحياة ، التي تتوزع فيها الامة الواحدة الى جماعات بشرية مستقلة يجمع بين افرادها صلة النسب المشترك سواء كان هذا النسب حقيقياً او وهمياً .

ونظراً لاهتمام العرب بقضايا النسب كان لا بد من ضبط التسلسل القبلي . ولكننا بالرغم من ذلك نلمس بلبلة في التنسيق بين طبقات القبائل العربية .

فقد رتب علماء الأنساب قبائل العرب في مراتب هي : « شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم فصيلة »^(١) « فالشعب هو النسب الأبعد كعدنان . والقبيلة مثل ربيعة ومضر والعمارة مثل قريش ، والبطن مثل عبد مناف والفخذ كبني هاشم وبني أمية والفصيلة مثل بني العباس »^(٢) فالشعب يتقدم القبيلة كما جاء

١ - السمعاني : مقدمة الانساب ص ١٨ .

٢ - القلقشندي : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »^(١) .

اما ابن الكلبي فقد جعل مرتبة بين الفخذ والفصيلة هي مرتبة العشيرة وهي رهط الرجل^(٢) وهناك ايضاً « الحلي وهو البطن من بطون العرب ويقع على بني اب ، كثروا او قلوا وعلى شعب يجمع القبائل »^(٣) « والرهط قوم الرجل وقبيلته »^(٤) .

فالقبيلة كمجموعة، تربط بين ابنائها روابط اقتصادية وعاطفية تجعل منها وحدة اجتماعية . وتمثلها ، في الأصل جماعة ينتسب جميع افرادها الى جد مشترك . ويعتقدون ان رابطة الدم الواحد تجمع بينهم^(٥) . ولكن هناك من يعتقد « ان القبيلة ليست اولى الخطوات لتكوين الجماعة البشرية بل سبقتها الاسرة »^(٦) والاسرة كانت اول وحدة بشرية نظامية واضحة المعالم بسيطة التركيب متكاملة الوظائف يشكل افرادها فيما بينهم صورة مصغرة عن الحكومة ، حتى اذا اجتمعت عدة اسر لاسباب مختلفة كانت القبيلة . وكان على كل عضو في ذلك المجتمع القبلي ان يتبنى عقيدتها . تلك العقيدة التي تتجلى في الذود عن سلامة القبيلة ، والحرص على كيانها وتوفير اسباب المعيشة والبقاء لمن ينتمون اليها . وهكذا فقد كانت المصلحة المشتركة هي التي تجمع بين افراد القبيلة الى جانب الاعتقاد بوحدة النسب والدم . وكانت كل قبيلة تنظر الى سائر الجماعات القبلية المحيطة بها نظرتها الى منافس يزاومها على موارد الحياة واسباب الرزق . ولا يخفى ان النظام القبلي كان ملازماً للبداءة . فالبداءة كانت الغالبة على العرب في الجاهلية ، يحددها حل وترحال متواصل طلباً للماء والكلاء ، لذا كان البدوي معرضاً للازمات الاقتصادية الخاضعة للعوامل الطبيعية في بيئة صحراوية معرضة دائماً للتقلبات المناخية . وقد سببت هذه الازمات

-
- ١ - القرآن الكريم : سورة الحجرات اية ١٣ .
 - ٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد مجلد ٣ ص ٣٣٥ .
 - ٣ - الزبيدي : تاج العروس مجلد ١٠ ص ١٠٥ .
 - ٤ - المصدر السابق مجلد ٥ ص ١٤٤ .
 - ٥ - حتي : تاريخ العرب المطول ص ٥٥ .
 - ٦ - بلاشير : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٤ .

على تواليها هجرات عدة حملت البعض على القول بان الجزيرة العربية مهد الهجرات السامية جميعها^(١) . ومن مظاهر هذه الحركات القبلية الواسعة انتشار القبائل العربية من يمنية وغيرها في الديار الشامية قبل الفتح الاسلامي . وكان البدوي لا يلجأ الى هذه التنقلات البعيدة المدى الا عند الضرورة القصوى ، وهو يميل اجمالاً الى سد عجزه الاقتصادي محلياً . ولذلك كان يعتمد الى الغزو . تلك الخاصة التي لازمت البداوة في اجلى مظاهرها عرفت « بايام العرب »^(٢) .

« فلقد قضت احوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو الى مرتبة يقرها النظام القومي . فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية »^(٣) . ولكن البيئة والظروف الاجتماعية التي أحاطت بالعرب قبل الاسلام لم تساعد على قيام نظام اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي سليم . فالحياة الجاهلية هي مزيج من النظام والفوضى وبالرغم من أن البدوي متمسك أساساً بالحرية إلى درجة الفوضوية ، وقد نشأ بعيداً عن كل نظام ؛ ومع انه فردي النزعة مفرط في الأنانية فإن بعض الباحثين « يظلمون البدوي حين يزعمون أن الروح الفردية تمكنت منه الى حد تعذر معه السمو الى مرتبة الإنسان الاجتماعي المعروف بنزعة الأهمية واننا لا نجد عنده صفات الولاء والاخلاص والتضحية في سبيل المصلحة المشتركة »^(٤) . على أن فردية العربي لم تطف على ولائه لجماعته وكان رائده ابداً السعي لما فيه خير جماعته ومنفعتاتها . فهذه الفردية تذوب في أغلب الأحيان أمام النزعة القبلية . ومن هنا يظهر التناقض العجيب في خلق البدوي . فهو على فرديته المسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل جماعته^(٥) . فانتساب البدوي الى مجتمع بشري ولو بدائي كان لا بد ان ينتج عنه نشوء بعض العادات . وطبيعي ان يصبح لهذا العرف القبلي

١ - حتي : تاريخ العرب المطول ص ٣٨ .

٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ١٣٣ .

٣ - حتي : تاريخ العرب المطول ص ٥٣ .

٤ - Lammens, Le berceau de L'islam P 187

٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢٠٨ انظر خبر قيس بن مسعود الشيباني يوم ذي قار .

سلطة معنوية تختلف قوتها باختلاف رقي المجتمع وحاجاته . فالمجتمع القبلي لم يكن فوضوياً كما يتبادر الى الذهن ، بل فيه مظاهر كثيرة من الأنظمة المتطورة ؛ فكانت كل قبيلة توكل أمر الإشراف على شؤونها وسياستها إلى مجلس مؤلف من رؤساء الأسر ، ومن رؤساء الرهط ، تبعاً لمقياس القبيلة^(١) وإلى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التي تهّم القبيلة^(٢) . فقد كانت رئاسة القبيلة في اهل العصبية والجاه « ذلك أنه لا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم اذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والاتباع »^(٣) . واذا تساوت العصبيات في جماعة قدموا أكبرهم سناً ، واذا اشكل عليهم الانتخاب لأي سبب عمدوا إلى الاقتراع^(٤) وهذا ما يجعلنا نطلق صفة الديمقراطية على المجتمع العربي^(٥) ، ولكنه لا ينبغي ان ننسى أن شبه الجزيرة العربية قد عرفت أنظمة عديدة للحكم ، وهي اشد تعقيداً من نظام القبيلة ، واقرب الى التكوين التام للدولة ، تجلت في صورة الامارات او الممالك العربية التي اقامها المناذرة والغساسنة ، والكنديون ، ثم قريش في مكة التي تمكنت استناداً الى مكانتها الدينية ووجود الكعبة فيها من ان تحيط نفسها ببعض نظم سياسية ودينية جعلت منها شبه حكومة مستقلة . فقد جمعت مناصب عديدة ، أهمها الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء . واستمرت هذه المناصب تتزايد حتى اصبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصباً هي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد فوزعتها قريش على بطونها^(٦) وبذلك تكون قريش بفضل هذه المناصب قد جمعت بين السياسة والدين والإدارة والحرب ، في قبيلة واحدة . ولكن كل ذلك لم يغير كثيراً في جوهر النظام القبلي .

- ١ - « واما احياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما قر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة » ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٤ أنظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١ .
- ٢ - زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٥ .
- ٣ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .
- ٤ - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٣٠٧ .
- ٥ - بلاشير : تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٣٥ .
- ٦ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

ومهما اختلفت الانظمة والتقاليد، والأعراف التي سادت شبه الجزيرة العربية في الجاهلية ، فإن الطابع الغالب ظل الطابع القبلي وبقيت الروح القبلية هي المسيطرة .

« فافراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون من تضامن ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على سواهم . إذا جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم فهي للقبيلة خيرها . وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ الى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه كأنه أحد أفرادها .

فوطنية القبيلة وطنية قبلية لا وطنية شعبية . وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميهما وتحميه هو المسمى بالعصبية ^(١) .

فوحدة القبيلة لا يمكن إرجاعها إلى صلات القربى وحدها ، أي رابطة الدم الواحد الذي يجري في عروق جميع أفرادها ، فثمة رابطة أخرى تجمع بين أبناء القبيلة تلك هي الحاجة لتجاوز مشكلات الاستقرار الداخلي والدفاع عن النفس عند الجماعات البدوية التي تعيش في وضعية توتر وصراع دائمين ، وذلك بسبب غمط الحياة الخاص بالمجتمع البدوي ، فالاستقرار الداخلي يستلزم التوصل إلى أفضل صيغة ممكنة لإقامة لحمية داخل المجموعة تضبط الصراعات والتنافسات بين أفرادها . وهكذا كان نشوء العصبية .

العصبية : لغويا واجتماعياً وسياسياً

تترافق كلمة « العصبية » مع تفسير شائع يجعل منها مرادفاً للتفرقة وتعبيراً عن تغليب مصلحة فئة ما على مصلحة الجماعة ككل . بينما تشير عبارة « الدين » إلى معانٍ توحيدية تعكس عملية تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفئات أو الأفراد

١ - احمد امين : فجر الاسلام ص ١٠ .

الذين يشكلونها . فالعصبية دليل انقسام والدين دليل وحدة . وقد درج العرب بعد الاسلام على استعمال كلمة العصبية في كل مرة يراد الاشارة فيها الى الصراعات الداخلية المستهدفة نتائج سلبية بالمقارنة مع الاستقرار الداخلي العاكس لوضعية ايجابية . لذلك اخذ العرب يستعملون كلمة « عصبية » للدلالة على التنازع والفرقة والاعتداد بالانساب وذلك في مقابل « الدين » الذي يدعو الى الوحدة والتآخي وتآلف القلوب . لقد استقر في اذهان الجميع بعد الإسلام أن العصبية دعوة مفرقة تقوم على تناحر فريق ضد آخر في حالة النزاع والخصام ، مما يذكي نار الفتنة ويشعل الحرب بين القبائل . ولم يكن هذا التناحر العصبي او النصره القبليه يستهدف دائماً اقرار الحق ، او انصاف المظلوم ، بل كان يستهدف مؤازرة المتعصب له سواء كان ظالماً او مظلوماً^(١) .

إن هذا القول يتماشى مع التفسير اللغوي الذي اعطاه ابن منظور للعصبية والتعصب . ففي لسان العرب « العصبية ان يدعو الرجل الى نصره عصبته ، والتألب معهم على ما يناوئهم ظالمين كانوا او مظلومين »^(٢) . ومقابل هذا التفسير اللغوي للعصبية فهناك عدة تفسيرات وتحديدات قديمة وحديثة ومعاصرة لمفهوم العصبية .

فحين يتحدث الماوردي عن العصبية يهمل المصطلح اللغوي مستعملاً عبارة « الالفه الجامعة » في سياق تفسيره وتصنيفه للعوامل الداخلية التي على أساسها تتناسك الجماعة وتتوحد وتؤمن امكانات المواجهة .

يبدأ الماوردي شرحه للألفة الجامعة محدداً اسبابها : « الدين ، النسب ، المصاهرة ، المؤاخاة بالمودة والبر » . ثم يعرفها قائلاً « فلأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة ، فإذا لم يكن ألفاً مألوفاً ، تخطفته أيدي حاسديه ، وتحكمت فيه

١ - محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ص ٢٥١ .

٢ - ابن منظور : لسان العرب ص ٦٠٦

العصبية : الاقارب من جهة الاب لانهم يعصبونه ويعتصب بهم اي يحيطون به ويشند بهم .

أهواء أعاديته ، فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة ، فإذا كان ألفاً مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديته وامتنع عن حاسديه فسلمت نعمته منهم ، وصفت مدته عنهم ، وإن كان صفو الزمان عسراً ، وسلمه خطراً»^(١) .

ولكي تقوم الألفة الجامعة بمهام الأمن داخل الجماعة والنصرة ضد أهواء الأعادي يحدد الماوردي مقوماتها الداخلية التي على أساسها يتم التآلف والتناصر . ومن هذه المقومات يحتل الدين والنسب والمواخاة أهمية ملحوظة^(٢) .

« فالنسب وهو الثاني من أسباب الألفة فلأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأبعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب »^(٣) .

أي أن النسب ليس مجرد ارتباط دموي - وراثي وإنما أيضاً قوة تضامنية داخلية في الجماعة تؤمن شروط التناصر والألفة في مواجهة استعلاء الأبعد وتسلط الغرباء .

وهذا ما يفسره ابن خلدون الذي يُعتبر وحده كفيلاً بتقديم تعريف واضح للعصبية ، يبرز قوانينها الداخلية ودورها التاريخي . فابن خلدون يقدم تعريفاً مهماً للعصبية ويعلل قيامها على النسب فيقول : « ان العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب ، او ما في معناه ذلك أن صلة الرحم طبعي في البشر إلا في الأقل وفي صلتها النصر على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالها ضيم او تصيبهم تهلكة ، فإن القريب تجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا »^(٤) .

كذلك فالعصبية وليدة ضرورة من ضرورات حياة أبناء المجتمع القبلي « لان

١ - الماوردي : ادب الدنيا والدين ص ١٤٨ .

٢ - المصدر السابق ص ١٤٩ .

٣ - المصدر السابق ص ١٥٠ .

٤ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ .

اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفاع ،
انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما
وراء ذلك «^(١) اذ لا بقاء للقبيلة الا بعصبيتها تصون القبيلة كيائها عن طريقها وتزود
عن حماها وترعى مصالحها في مجتمع تسوده شرعة تنازع البقاء فهي كما يقول ابن
خلدون : « نتيجة للحياة التي يحياها الإنسان ، ولذا نرى الطابع الذي يطبع الحياة
العربية هو هذه النزعة التي اقتضاها نكد عيشهم وشظف أحوالهم وسوء موطنهم
وتنقلهم من بقعة لأخرى فخلقت هذه الحياة بينهم الفأ وتعصباً »^(٢) .

أما دور العصبية في المجتمع القبلي فأساسي ، يكسب القبيلة القدرة على دفع
عدوان غيرها من القبائل ومنه تستمد القدرة على العدوان على غيرها من القبائل
« ولا يصدق دفاعهم وزيادهم الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد ، لانهم بذلك
تشدد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نصرته كل احد على نسبه وعصبيته اهم »^(٣) .

الا ان القبيلة في المجتمع العربي لم تستطع المحافظة طويلاً على وحدة الدم
ولحمة النسب لانضمام أشخاص آخرين إليها عن طريق الولاء والاستلحاق
والاسترقاق والحلف ونحو ذلك ، فلم تعد القبيلة تمثل وحدة مثالية متجانسة ،
وعلى الرغم من ذلك ظلت العصبية القبلية قائمة فيها . وهذا ما يحاول ابن خلدون
تفسيره فيرى « ان نصرته كل احد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلحق النفس من
اهتضام جارها او قريبها او نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة
الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب او قريباً منها »^(٤) .

واكثر الباحثين من العرب والمستشرقين الذين تناولوا العصبية في ابحاثهم ،
فسروها تفسيرات تلتقي مع الخطوط العريضة لمفهوم العصبية عند ابن خلدون وتدور

١ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٠ .

٢ - المصدر السابق ص ٢٢٧ .

٣ - المصدر السابق ص ٢٢٤ .

٤ - المصدر السابق ص ٢٢٦ .

بشكل اساسي حول الانتماء ، التضامن والوحدة داخل الجماعة : فأحمد عبد السلام يعرف العصبية بقوله انها « سنة الحياة البشرية لا يستقيم مجتمع بشري الآ بها ولا يخلو منها مجتمع مهما اغرق في البداوة فالعصبية ظاهرة حياتية لازمت المجتمعات البشرية من يوم وجدت على ظهر البسيطة »^(١)

وزاهية قدورة رأّت في العصبية « صفة من مستلزمات وجود الانسان ، فما دام الانسان انساناً يحب ويكره ويأمل ويطمح وما دام كائناً مضطراً الى الكفاح والصراع ليسد حاجاته ويضمن بقاءه فهو مضطر الى أن يتعصب »^(٢) .

ومحمد عابد الجابري يتحدث عن العصبية معتبراً اياها « رابطة اجتماعية وسيكولوجية شعورية ولا شعورية معاً ، تربط افراد جماعة ما قائمة على القرابة ، ربطاً مستمراً يبرز ويشد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد : كأفراد او كجماعة »^(٣) .

والمستشرق ايف لاکوست يعتبر « ان العصبية ليست حالة وانما هي سياسة »^(٤) وهو يرفض اعتبارها رابطة دموية مشيراً الى ان « التضامن القائم على روابط الدم ليس العصبية وانما هو شرط لتمكين العصبية من أن تتطور »^(٥) .

وهو بعد ذلك يعطي العصبية دوراً طبقياً فيقول : « ان العصبية ليست التضامن الاجتماعي بوجه عام ، وانما هي شكل دقيق جداً من اشكال التنظيم السياسي . . . والعصبية كذلك ليست التضامن القبلي الوحيد ، ولا الابقاء الوحيد على روابط الدم ، انها تتعلق بحالة معطاة للبنى السياسية القبلية والاجتماعية ، وهي

-
- ١ - احمد عبد السلام : دراسات في مصطلح السياسة عند العرب ص ١٠٦ - ١٠٧ .
 - ٢ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ السنة الثامنة النشرة السادسة (ص ٢٩٥) .
 - ٣ - محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ص ٢٥٤ .
 - ٤ - ايف لاکوست : العلامة ابن خلدون ص ١٣٥ .
 - ٥ - المصدر السابق ص ١٣٦ .

حالة تتعلق بمستوى معين من التطور الاقتصادي»^(١) .

هذه بعض الآراء والنظريات في تعريف العصبية قديماً وحديثاً وإن ما يهمننا هو « العصبية القبلية التي كانت تسيطر على العرب في جاهليتهم وهي وحدها التي تعين الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو فهي تربط الأسر بالعشائر والعشائر بالقبائل»^(٢) « فقد قام النظام السياسي في شبه الجزيرة العربية على العصبية التي تبلغ ذروتها في العصبية للقبيلة . والعصبية القبلية هي القومية بالقياس الى العرف البدوي»^(٣) وهي تذكرنا « بالنزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث»^(٤) .

فكما ان القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها على سائر القوميات فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة . فكل قبيلة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها وفضلها على سائر القبائل^(٥) وقد تتوسع هذه العصبية حين تتحالف جماعتان او اكثر ولا يكون الدافع الى هذا الحلف شعوراً قومياً مشتركاً وإنما شعور بالحاجة الى تأليف جبهة قبلية موحدة تقف في وجه القبائل الأخرى في مجتمع تسوده شرعة تنازع البقاء . فالدفاع عن النفس ودرء الخطر الخارجي الذي يهدد القبيلة كلها بمجموع افرادها وعصبياتها الصغيرة الداخلية كان في أساس ولادة العصبية القبلية .

فالدوافع لتكون الأحلاف لم تكن ناشئة عن حسّ داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهتم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة لذا كان امد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح .

١ - ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون مس ١٣٨ - ١٣٩ .

٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٧ .

٣ - جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٢١٢ .

٤ - حتي ، جبور : تاريخ العرب المطول ص ٥٦ .

٥ - حدثني شيخ من الازد ثقة عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت وهو يدعوا لبيه فليل له الا تدعوا لامك فقال انها تميمية . وهذا من التعصب القبلي .

المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ١٩٨ .

ويحدد البكري الهدف من قيام تلك الأحلاف بقوله : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ والتماس المعاش في المتسع وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضعاف القوي الضعيف ، انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »^(١) .

ولكن المصلحة كانت تقضي في بعض الأحيان تحالف قبيلة مع جماعات أخرى غربية عنها ، على قبيلة تربطها بها رابطة النسب^(٢) كتحالف بني ذبيان وبني أسد على بني عيس أخوة ذبيان يوم الهباءة^(٣) .

وقد ظهر في مكة نوع جديد من التضامن المبني على أساس المصلحة التجارية تتجلى في الأحلاف كحلف المطيين ولعقة الدم وحلف الفضول وغيرها^(٤) .

ويبدو ان هذه التحالفات والتكتلات القبلية في مكة وبين فروع قريش قد استمرت في تطورها في عصر الرسول وتركت أثراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية عند العرب قبل الاسلام وبعده . « فهذا الوضع الذي كان يتقلب بين النزاع والتحالف كان التربة الخصبة التي نبتت فيه العصية القبلية وترعرعت وهي ابرز مميزات المجتمع العربي حينذاك شأنه في ذلك شأن كل مجتمع قبلي »^(٥) فظهور العصية في المجتمع الجاهلي كان يلبي حاجة كامنة في نفس العربي ويروي ظمأه الى التعلق بمثل اعلى يعيش من اجله ويعكس توقه الى عقيدة يبذل دمه في سبيلها ، فكانت العصية القبلية صدى هذه الحاجة وتجسيدها لها .

-
- ١ - البكري : معجم ما استعجم المقدمة ص ٥٣ .
 - ٢ - زاهية قدورة : العصية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ - السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٢٩٧ .
 - ٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٤١ .
 - ٤ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ١٤٣ .
 - ٥ - زاهية قدورة : العصية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية سنة ١٩٥٤ السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٢٩٧ .

واتخذت العصبية لدى القبائل العربية مظاهر مختلفة لجهة ضيق حدودها او اتساعها ، فقد كانت ضيقة الحدود عند نشوب الحروب بين بطون تمت الى قبيلة واحدة على رغم شعورها بوحدة نسبها ، فكانت العصبية للرھط او البطن تغطي على العصبية الجامعة للقبيلة ومنها تلك الحروب التي نشبت بين بطون بني عدوان وكادت تؤدي الى فناء هذه القبيلة^(١) . وكانت حدودها تتسع كالعصبية لقيس كلها او لمضر او لربيعة ، وكذلك العصبية الشاملة لعدنان او لقحطان التي لم تعرف في العصر الجاهلي . ذلك ان هذا العصر لم يشهد التكتل الواسع النطاق حول محور قيس او مضر او ربيعة وانما ظهرت بواكير ذلك مع الاسلام في نزاع مكة والمدينة وتبلورت واتضحت معالمها عند وقوع الخلاف بين المسلمين ايام علي وبلغت ذروتها في العصر الاموي الذي يعتبر عصر التكتلات الواسعة .

وهكذا فانه لا يمكننا القول بعصبية عدنانية شاملة او قحطانية في العصر الجاهلي ذلك ان المجتمع الجاهلي كان مبنياً على اساس العصبيات المتعددة ، ولا يمكن ان تظهر فيه نزعة او فكرة جامعة شاملة ، لان الوعي السياسي فيه ضيق محدود لا تتجاوز حدوده حدود القبيلة في الغالب .

وفي الخلاصة نرى ان العربي كان يجد اللذة في ارتباطه بفكرة العصبية وفناؤه من اجلها ، مثل ما يجده ابناء العصر الحاضر في تعلقهم بفكرة الوطن او القومية او المذهب السياسي . وهكذا نرى ان العصبية هي النواة الاولى للحزبية السياسية ، تلك الحزبية التي لم تجد لها مجالاً للظهور في العصر الجاهلي حيث عاش العرب حياة لا حاجة لها للحزبية السياسية بمعناها الدقيق ، لانه لم يكن هناك من مصالح سياسية او اقتصادية معقدة . فالمشكلة كانت في تأمين الغذاء وحماية النفس فتمنى امن هذا عن طريق العصبية القبلية اي الارتباط الوشيج بين الفرد والقبيلة التي ينتمي اليها او التي انتمى اليها بالولاء او بالاستلحاق اطمأن الى اطعامه من جوع وتأمينه من خوف .

١ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغانى مجلد ٣ القسم الاول ص ١٥ .

الباب الثاني

ولادة الحزبية السياسية

الفصل الأول

الإسلام وفكرة الحزبية

كان المجتمع العربي عشية الدعوة الإسلامية مجتمعا قليلاً تتحكم فيه العصبية أشد التحكم . فكان على الإسلام أن يواجه هذا الواقع ليصلحه ، ويسمو به الى مستوى اجتماعي رفيع . ولكن مهمة الرسول في الدعوة النبوية كانت مهمة عسيرة بالغة المشقة ، إذ لم يكن يستطيع الاكتفاء بالتدليل على صحة المبادئ التي يبشر بها بل كان عليه أن يتغلب على ما طبع عليه ابناء قومه من عدم الاكتراث واقتضى الأمر أن يوقظ في نفوسهم العاطفة الدينية ، وأن يرشدهم إلى نور الهدى وإلى الصراط المستقيم فقد أرسله الله «رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور»^(١) .

وكان اول من اتبع محمداً (صلعم) أفراد من أقربائه وأصدقائه ومن الموالي والرقيق^(٢) غير أنه كان يرغب في ضم جميع أهل مكة الى دعوته ، ومن ثم ان يجعل

١ - القرآن الكريم : سورة الطلاق آية ١٠ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢٥٩ (كانت خديجة بنت خويلد اول من آمن بالله وبرسوله » .

« وكان اول ذكر من الناس آمن برسول الله علي بن ابي طالب » ص ٢٦٤ .

« ثم اسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله » : ص ٢٦٥ .

« ثم اسلم ابو بكر بن ابي قحافة » : ص ٢٦٧ .

أُمته العربية كلها جماعة دينية واحدة ، وفي القرآن إشارات الى الامة ؛ أي جماعة المؤمنين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »^(١) ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »^(٢) .

« ولم تكن الدولة من حيث هي نظام منفصل عن الجماعة ومستقل عنها في وظيفته ، ومن حيث ان لهذا النظام سلطاناً يخضع له الناس ، وقد وجد بين العرب ، بل كانت الدولة عندهم هي الجماعة في جملتها وانما كان هناك أمة^١ فلم يكن هناك نظام سياسي من صنع الإنسان ، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء »^(٣) ، فالقبيلة هي الوحدة السياسية التي بني عليها المجتمع العربي قبل الإسلام وكان على الإسلام أن ينقل العرب من طور الوحدات السياسية المتعددة القائمة على نظام القبيلة الى طور الوحدة السياسية الشاملة القائمة على نظام الدولة .

فعمد الرسول الى توحيد القبائل العربية تحت لواء الدين ، ليصبحوا أمة عربية لها وحدتها العنصرية والدينية واللغوية والاجتماعية ، ويكون خضوعهم لرئيس واحد هو الرسول (صلعم) ثم خلفاؤه من بعده . وهذا وحده كاف للقول ، بان العرب إبان ظهور الاسلام ، وتحت لواء لغة واحدة وكتاب واحد ، كانوا يسعون لتكوين دولة عربية لها مقومات الدولة الناشئة . وجاءت الايات القرآنية لترفع من مستوى العرب ولغتهم ولتدعوهم الى التمسك بعنصر فعال من عناصر تكوين امة عربية اللسان موحدة الكلمة .

« انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »^(٤) .
« وكذلك اوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها »^(٥) .

١ - القرآن الكريم : سورة آل عمران آية ١١٠ .

٢ - المصدر السابق : سورة البقرة آية ١٤٣ .

٣ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣ - ٤ .

٤ - القرآن الكريم : سورة الزخرف آية ٣ .

٥ - المصدر السابق : سورة الشورى آية ٧ .

« ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته » (١) .

على ان ذلك لم يجعل الدعوة الاسلامية مقتصرة على بلاد العرب بل جاءت للناس كافة : « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (٢) وتتجلى عالمية الدعوة الاسلامية في الكتب التي بعث بها الرسول (صلعم) سنة ٦ هـ الى عظماء ملوك ذلك العصر (٣) .

هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كان على الرسول لتوحيد القبائل العربية وجمع شملها في امة واحدة تحت راية الاسلام ، أن يحارب النزعات العصبية والروح القبيلة التي كانت تحول في العصر الجاهلي دون توحيد كلمة القبائل العربية وهي التي اوجدت حالة عداوة وتنافس بين هذه القبائل وأدت الى اثار الضغائن والاحقاد فكان لا بد من ايجاد رابطة تقوم مكان الرابطة القبلية (رابطة الدم والاشترك في النسب) وذلك عن طريق عقيدة تتجاوز الدائرة التي ترسمها رابطة الدم وتستطيع ان تزيلها ولم يكن اجدى واقوى من الرابطة الدينية التي تستطيع احلال مشاعر الاخوة والوئام بين شتى القبائل محل مشاعر العداوة والبغضاء .

وهكذا فقد وجدت العصبية القبلية نفسها منذ مجيء الاسلام أمام خصم قوي شديد المراس هو هذه العقيدة الجديدة التي تدعو العرب كافة الى التآخي والتآزر : « وانما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٤) وألحت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على الروابط الأخوية التي تقوم بين المسلم واخيه وتؤلف بين قلوب العرب جميعاً . ودعت الى نبذ حمية الجاهلية ونزعاتها والى التخلي عن الروح القبيلة كقوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية

١ - القرآن الكريم . سورة فصلت آية ٤٤ .

٢ - المصدر السابق : سورة سبأ آية ٢٧ .

٣ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٧٩ .

٤ - القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٠ .

الجاهلية»^(١) وأثر عن الرسول طائفة من الاحاديث في ذم العصبية والتنفير من دعوى الجاهلية : « من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية او يدعو لعصبية او ينصر عصبية فقتل قتلة جاهلية»^(٢) و : « من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم»^(٣) وجاء في خطبته يوم فتح مكة قوله : « يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء ، الناس من آدم وآدم من تراب»^(٤) .

كذلك فقد حرص الرسول (صلعم) على التحذير من الدعوة القبلية في بعض الكتب والعهود التي وجهها الى القبائل ودعا الى تغليب داعي الدين على العصبية . ففي عهده الى بني الحارث بن كعب قال : « وينهي اذ لم كان بين الناس هيح عن الدعاء الى القبائل والعشائر وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيوف حتى تكون دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له»^(٥) .

ومن المبادئ الاصلية في الدعوة الاسلامية عدم المفاضلة بين الناس على اساس الانساب او على اساس الاجناس وانما تكون المفاضلة بالتقوى وطاعة الله وتنفيذ اوامره : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير .»^(٦) .

وفي خطبة الوداع اكد الرسول على هذا المعنى : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى»^(٧) و« الناس كلهم سواء كاسنان المشط»^(٨) .

- ١ - القرآن الكريم : سورة الفتح آية ٢٦ .
- ٢ - ابن ماجة : كتاب السنن (باب العصبية) ج ٢ ص ٢٤١ .
- ٣ - المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٤١ .
- ٤ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٢ وكذلك ابن خلدون : المقدمة ص ٣٥٨ .
- ٥ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٦٦ .
- ٦ - القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٣ .
- ٧ - ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٥٨ والجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٣ .
- ٨ - الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ١٩ .

وهكذا شهد العرب في مجتمعهم ظاهرة لم يسبق لهم ان شهدوها من ذي قبل ؛ شهدوا محمداً القرشي يبدو كأنه أخ لبلال الحبشي ؛ وهو عبد زنجي ، ولزيد ابن حارثة الكلبي ؛ وهو مولى لخليجة وهبته للرسول فاعتقه . « ففكرة المساواة بين المؤمنين في الإسلام ، والتي لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وأعجمي أو بين عبد وحرّ ممن اعتنقوا الاسلام ، فكرة عارضت في الصميم نعمة الشعور القبلي عند العربي الذي بني احترامه الشخصي على شهرة أجداده ، ومضى اقتداء بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم »^(١) . كذلك فقد حرص الرسول (صلعم) على إلغاء دواعي الخصومة والعداوة بين قبائل العرب منذ قيام الإسلام وذلك بإبطال دماء الجاهلية وإهدارها . ففي خطبته يوم فتح مكة قال : « ألا كل دين ومال ودم ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي »^(٢) .

كذلك فقد ألغى الرسول حق الثأر الفردي ، وجعل العقاب منوطاً بالله وبالرسول لا بالفرد او القبيلة . والاتجاه نحو فكرة العقوبة كانت خطوة مهمة للحدّ من المنازعات القبلية « وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل الى محمد (صلعم) »^(٣) .

وكان من تأثير هذه المبادئ والعقائد التي دعا إليها الاسلام واستهدفت كيان المجتمع القبلي بما يمثله من عادات وأعراف وتقاليد ، أن الرسول في مكة حيث بدأت الدعوة لم يسلم من أذى أهله وعشيرته^(٤) . فقد حدث رد فعل عنيف من قبل قريش اذ وجد زعمائها أنفسهم مهددين في عقيدتهم ومصالحهم ، فازدادت الحرب الكلامية احتداماً بينهم وبين المسلمين وربما تعدت مجرد الانتقاد إلى التهديد « ولكن قوة العصبية للقبيل التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة

١ - انرولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٤ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٢ . وكذلك البلاذري : فتوح البلدان ص ٥٤ (مع تغيير في اللفظ)

٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٢١ .

٤ - الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٠ .

اعتداء على حياته بالرغم من أن بني طالب وبني هاشم عشيرة الرسول لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي جاء بها النبي «^(١)». وكان من مظاهر هذا الوضع الجديد ان ترك الرسول (صلعم) قومه قريشاً وأهله الأذنين بمكة ، واضطر للهجرة إلى يثرب حيث الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ، اكثر ملاءمة للدعوة الإسلامية ؛ فالمجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول اليه ، كان منقسماً على نفسه ، ويفتقر إلى الوحدة بين عناصره المختلفة ، فقد كانت يثرب مشغولة بنزاع دائم بين قبيلتي الأوس والخزرج ، وهما عربيتان مشركتان ، وسادت المدينة حال من الفوضى وانعدام الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة^(٢) . والرسول بوصفه فوق كل عصبية دموية ، وفوق كل نزاع حزبي ، وداعية وحدة وتضامن ، تحت لواء دين يجمع ولا يفرق ، كان افضل حل لمشاكل مدينة كيثرب تشكو أشد الشكوى من عوامل الفرقة والانقسام .

كذلك لا ننسى اثر اليهودية التي كانت منتشرة في المدينة فقد جعلت اهل يثرب يتقبلون التعاليم التي تدعو إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد .

وهناك من يعزو نجاح مهمة الرسول في يثرب إلى عامل العصبية إذ كان بين مكة ويثرب منافسة ومسابقة وتحاسد لتباعدهما في الانساب لأن أهل مكة من العدنانية وأهل يثرب من القحطانية «^(٣)» ونحن نشك في هذا الأمر لأن العصبية للعدنانية اول للقحطانية لم تكن قد برزت في ذلك الوقت . فقد كان علينا ان ننتظر ظهورها حتى مجيء الدولة الاموية .

وذهب بعضهم في تحليل مناصرة اهل يثرب للرسول واستقباله في مدينتهم الى أنه « لم يكن في المدينة من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الأصنام بل هم يفضلون

١ - ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٠ .

٢ - Lammens , Le berceau de l'islam P 264

٣ - جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ٤٧ .

إبطاها لتسقط مكة ، وتنهض مدينتهم ، خصوصاً إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد يحج إليها الناس بدلاً من حجهم الى مكة «^(١)» ولكننا نرى ان الدعوة التي وجهها أهل يثرب الى الرسول في البداية لم تكن تبغي العداء لمكة وحتى بعد بدء الغزوات فان أهل يثرب لم يشتركوا فيها حتى لا يولد ذلك عداوة مع مكة^(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن الرسول استطاع في المدينة ان يقيم نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً ، « فقد أقام حكومة دينية مطلقة بدلاً من حكومة الارستقراطية القبلية التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشؤون العامة تحت لوائها » .^(٣) واستطاع الرسول بذلك « ان يوجه ضربة قوية إلى النظام المترکز في حياة العرب »^(٤) .

ولكن إلى أي حد تآثر المجتمع العربي بالإسلام ؟ وهل أدت التعاليم الاسلامية والتدابير التي اتخذها الرسول الى القضاء على النزعات الجاهلية والعصبية القبلية ؟ وهل أدى توحيد العرب في أمة واحدة تحت راية الاسلام الى الغاء الروح القبلية وإحلال الشعور القومي محلها ؟

في الحقيقة إنه لم يكن من السهل أن يقتلع الدين الجديد من نفوس العرب بين عشية وضحاها جذور العصبية التي رسخت فيها على مر القرون وجرت من نفوسهم مجرى الدماء في العروق، لذلك فقد دار صراع عنيف في نفس العربي بين العقيدة الدينية وما تمثلها من مبادئ وتعاليم وبين العصبية القبلية . وكان الصراع بين وضع جاهلي قديم ونظام إسلامي جديد . واذا شئت فقل بين دولة تزول وأخرى تقوم . فالواقع « أن ظهور عاملي الدين والقومية على مسرح الحياة العربية

١ - المصدر السابق : ص ٤٧ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٤٠٢ .

٣ - ابنوليد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٧ .

٤ - Lammens , L'arabie occidentale avant l'hégire P. 237-238 .

أدى من دون شك الى إضعاف النزعة القبلية ولكنه لم يؤد إلى القضاء عليها قضاء تاماً» (١) .

« فالأساس القبلي أصبح في رأي الإسلام منكرأ ، نهى عنه الرسول وانكر دعوة الجاهلية والتشبث بالعصبية وأحل محل هذه الحمية أساساً آخر عاماً عريض الأفق هو الاسلام أو الدين الإنساني الجديد ، وضمن هذا الشعار الجديد برزت رابطة جديدة هي الرابطة الدينية بين المسلمين » (٢) .

ويعبر السيد توماس ارنولد نقلاً عن فون كريم اصدق تعبير عن وضع القبائل العربية في الاسلام بقوله : « وقد جمعت فكرة الدين المشترك ، تحت زعامة واحدة ، شتى القبائل في نظام سياسي واحد . ذلك أن النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهشة والاعجاب ، وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية . وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة وإن لم يقض عليه نهائياً (إذ كان ذلك مستحيلاً) شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية » (٣) .

ففي المدينة حيث سعى الرسول لوضع الحجر الاساسي لأول دولة في الاسلام يحل الدين فيها مكان العصبية القبلية بقي انتماء الفرد الى الامة عن طريق العشيرة والقبيلة ؛ فالذين هاجروا من مكة الى المدينة كونوا حياً لقريش يثرب واصبحوا فرعاً لقبيلة قريش في الوطن الجديد . « فالمجتمع آنذاك لم يكن يعترف بالفرد دون ان تكون له قبيلة ينتسب اليها ، حتى الموالي من غير العرب التحقوا بقبائل عربية » (٤) . فقد احتفظ المكيون الذين جاءوا مع الرسول عليه السلام الى يثرب

١ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤ - السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٣٠٠ .

٢ - زاهية قدورة : العصبية في المجتمع العربي - محاضرات الندوة اللبنانية سنة ١٩٥٤ السنة الثامنة - النشرة السادسة ص ٢٩٩ .

٣ - ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥٣ .

٤ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات ص ٣٦ .

وسموا بالمهاجرين بهويتهم والى جانبهم تمسكت قبائل العرب من الانصار التي كانت تسكن المدينة بهويتها ولم يشذ عن ذلك قبائل اليهود في المدينة .

وقد حفظ لنا ابن هشام برواية ابن إسحق كتابا عقده الرسول بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود وهو ما يعرف بالصحيفة والذي كان بمثابة الدستور الذي نظم حياة الدولة الإسلامية عقب الهجرة .

فقد جاء في الكتاب او الصحيفة ان الفرد لا ينتمي إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة ، وبذلك تبقى القبائل كما هي وأن تدخل في الأمة كما هي ، ولم يخطر على الأذهان قط إمكان تقسيم للجماعة بحسب مبدأ جديد مغاير لما هو معروف . وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم . كذلك فقد بقيت على القبائل النفقات التي ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصاً دفع الدية وفداء الأسرى وكذلك بقيت للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء فلا يسوغ لاحد ان يدعو مولى الى مخالفة مولاه^(١) .

كذلك مجلس الشورى في عهد الرسول او الهيئة التي تكونت من المهاجرين الأولين والتي تذكر المصادر أنهم « العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة »^(٢) فقد كانت اقرب الى حكومة الدولة العربية الإسلامية التي قامت في يثرب وهيئتها التأسيسية منها الى جماعة من التقاتة المبشرين بالجنة^(٣) . فهؤلاء العشرة كانوا من قوم الرسول قريش ويمثلون أهم بطون قريش . فالدعوة الإسلامية وإن كانت ترمي إلى تخطي الحواجز القومية فضلاً عن القبلية فإن ظروفها في نشأتها وصراعها مع خصومها فرضت عليها ان تلجأ للاستفادة من التأييد والنصرة المستمدتين من العلاقات

١ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ . ص ١١٩ - ١٢٠ .

٢ - ابن الأثير : اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣١٩ .

« العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة هم : ابو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، طلحة ، الزبير ، عبدالرحمن بن عوف ، سعد بن ابي وقاص ، سعيد بن زيد ، ابو عبيدة بن الجراح » .

٣ - محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب السياسية ص ٥٦ .

والروابط القبلية . فالنفوذ والعصبية هما معيار الاختيار الأول في هذا المقام » لأن الرياسة إنما تكون بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية ، فلا بد في الرياسة على القوم ان تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة «^(١) .

وبالرغم من المساعي التي بذلها الرسول لتوحيد كلمة المسلمين وإحلال الدين محل العصبية فقد ظهرت في المدينة بعد الهجرة فئتان من المسلمين لا فئة واحدة : المهاجرون والأنصار . فالمهاجرون هم المكيون الذين هاجروا مع الرسول (صلعم) والأنصار هم اهل المدينة من الأوس والخزرج . ولم تكن هاتان الفئتان منفصلتين في محيطهما عن جماعة غير المسلمين الذين كانت غالبيتهم من اليهود وبينهم بعض المشركين من الأوس والخزرج^(٢) . أو من فئة المنافقين الذين كان اسلامهم ظاهرياً » ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين «^(٣) .

وعلى الرغم من مشاغل الرسول الكثيرة فقد تنبّه إلى هذا الواقع الجديد وهو انقسام الجماعة الاسلامية إلى فئتين وهو الذي عمل جاهداً على جعل المسلمين جماعة واحدة فعالج الأمر بروح محبة واعية فوجد رابطة جديدة بين فئتي المجتمع الجديد وهي رابطة الاخوة . قال ابن اسحق : « وأخى الرسول بين أصحابه من المهاجرين والأنصار »^(٤) .

ولكن الأحداث في ذلك الحين سارت على غير ما يشتهي الرسول إذ ظهر التمييز جلياً بين فريقين المسلمين في الدولة الإسلامية الاولى في امر السرايا السبع الأولى التي وجه الرسول ستاً منها ضد قوافل قريش التجارية . فالملاحظ من امر هذه السرايا أن جميع أفرادها كانوا من المهاجرين ولم يشترك فيها من الأنصار أحد^(٥) .

١ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٣٥ .

٣ - القرآن الكريم : سورة البقرة آية ٨ .

٤ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٢٤ .

٥ - ان رسول الله (صلعم) عقد على رأس سبعة أشهر من مهاجرة عقد لحمزة بن عبد المطلب لواء ابيض في =

وهذا اول تمييز في المجتمع الاسلامي بين فئتين من المسلمين تعيشان في المدينة معقل الإسلام الأول .

وقد يكون السبب في عدم إشراك الأنصار في أمر هذه السرايا التزام الرسول (صلعم) بصيغة بيعة العقبة الثانية ؛ وهي معاهدة دفاعية بين النبي وبينهم والتي جاء فيها : « والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أُرْنَا »^(١) .

فالأنصار كانوا في المجتمع الإسلامي فئة من المسلمين على الرسول استشارتهم قبل البدء بالمعركة ، ولم تكن حتى غزوة بدر الكبرى قد اشتركت في أعمال الرسول الحربية . ففي غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ استشار النبي اصحابه قبل الخروج على قريش ولا سيما الأنصار منهم : « اشيروا علي ايها الناس » وانما يريد الانصار وذلك انهم عدد الناس ، وانهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فإذا وصلت اليها فانت في ذمتنا

-
- = ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليعترض لغبرات قريش : الطبري ج ٢ ص ٤٠٣ .
- انظر : ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٧٧ - ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٦ .
- ان رسول الله (صلعم) عقد ايضاً في هذه السنة على رأس ثمانية اشهر من مهاجرة في شوال لعبيدة بن الحارث بن المطلب لواء ابيض . . في ستين من المهاجرين ليس فيهم انصاري .
- الطبري : ج ٢ ص ٤٠٢ وابن هشام : السيرة ج ٢ ص ٢٢٤ - ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٧ .
- كذلك فقد عقد رسول الله لسعد بن ابي وقاص الى الخرار لواء ابيض وكان من مع سعد كلهم من المهاجرين . الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ وابن هشام ج ٢ ص ٢٣٨ وابن سعد ج ٢ ص ٧ .
- كذلك فقد بعث النبي عبيدة بن الحارث بن المطلب في ثمانين او ستين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الانصار احد . الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ . ابن سعد ج ٢ ص ٧ .
- وبعث حمزة بن عبدالمطلب في مقام ذلك الى سيف البحر . . في ثلاثين راكبا من المهاجرين . . ليس فيهم من الانصار احد .
- الطبري ج ٢ ص ٤٠٢ وابن هشام ج ٢ ص ٢٣٠ وابن سعد ج ٢ ص ٨ .
- وبعث عبد الله بن جحش معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الانصار احد .
- الطبري ج ٢ ص ٤١٠ (ذكر الواقدي انهم ١٢ رجلاً) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٩ وابن سعد ج ٢ ص ١٠ .
- ١ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٠ وكذلك : الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٣٦٢ .

غذك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله (صلعم) يتخوف الا تكون
الأنصار ترى عليها نصره الا آمن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير
بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله (صلعم) قال له سعد بن معاذ :
والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « اجل » قال : قد آمنا بك ،
وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهدنا وموathقنا
على السمع والطاعة فامض لما اردت فنحن معك . . »^(١) .

ولكن هذه الفئة من المسلمين كانت تجد نفسها في كثير من الاحيان مهضومة
الحق بالرغم مما قدمت من توضحيات وبلاء في سبيل نشر العقيدة الاسلامية
وتدعيمها ، فالغنائم الوافرة التي سقطت في أيدي المسلمين المنتصرين في غزوة
حنين ذهبت جميعها إلى المكين ولم ينل الأنصار من تلك العطايا شيئاً حتى قال
قائلهم : « لقي والله رسول الله قومه »^(٢) ولكن الرسول استطاع بحكمته أن
يشرح للأنصار الهدف والحكمة من تصرفه : « اوجدتم يا معشر الأنصار في
أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم »^(٣)
« فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر آتألفهم »^(٤) .

ولعلّ الهدف من إثارة قريش بهذه العطايا يعود إلى أسباب سياسية . فالمكيون
الذين حاربوا الاسلام طويلاً ولم يدخلوا فيه إلا مرغمين بعد فتح مكة كانوا مازالون
قريبين العهد بالإيمان ، لذلك حاول الرسول أن يظهر لهم الفائدة المادية الكبيرة التي
يمكنهم أن يجنوها من دخولهم في الدين الجديد بعد تركهم عبادة الاصنام في الكعبة

١ - ابن هشام : السيرة النبوية : ج ٢ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

٢ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٧ .

كذلك في صحيح البخاري : ففي قسمة اموال هوازن قال ناس من الانصار « يغفر الله لرسول

الله (صلعم) يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم » ج ٥ ص ٢٠٠ .

« ويوم فتح مكة قسم رسول الله (صلعم) غنائم في قريش فغضبت الانصار » ج ٥ ص ٢٠١ .

٣ - البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٢٠١ .

٤ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١٤٨ .

والتي كانوا يحافظون عليها ، لا تمسكها بها ، لما تمثله من قيم دينية ، ولكن بما تفيضه عليهم من نعم مادية .

ولكن بالرغم من الجهود التي بذلها الرسول في محو آثار العصبية الجاهلية من النفوس مستشهداً تارة بالآيات القرآنية وأخرى بالأحاديث الشريفة فإن العصبية القبلية وما يتصل بها من نزعات وعادات كانت تظهر من حين لآخر .

فكثير من القبائل العربية التي اعتنقت الإسلام لم تنس أحقاد الجاهلية وثاراتها على الرغم من الأحاديث النبوية في ذم هذه العادات ، فقد قتلت « خزاعة » عام الفتح رجلاً من بني ليث بقتيل لها في الجاهلية^(١) كذلك فبالرغم من مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والأنصار والعمل على صهرهما في بوتقة الإسلام فإن النزاع قد نشب بينهما أكثر من مرة .

ففي غزوة بني المصطلق أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار فكان بينهما قتال إلى أن صرخ : يا معشر الأنصار . وصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين . فبلغ ذلك النبي (صلعم) فقال : « ما لكم ولدعوة الجاهلية » ؟ قالوا : « كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار » . فقال رسول الله : دعوها فإنها منتنة . (وهذا دليل على محاولة الرسول الدائمة في محاربة العصبية) . ولكن عبدالله بن أبي بن أبي سلول قال : لئن رجعنا إلى المدينة لنخرجن الأعز منها الأذل^(٢) .

كذلك ففي الخبر عن حديث الإفك ذكر ابن اسحق : « قال اسيد بن حضير (زعيم الخزرج) : يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفكهم وان يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك . فوالله إنهم أهل أن تضرب أعناقهم . فقام سعد بن

١ - البخاري : الصحيح ج ٩ ص ٦ .

٢ - الطبري : جامع البيان عن تأويل أي القرآن ج ٨ ص ١١٢ .

انظر هذه الرواية في : ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

والبخاري : الصحيح ج ٤ ص ٢٢٣ .

عبادة فقال : كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج . ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . . . وتناور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر^(١) .

وفي الخبر عن ابن إسحق « أن شاس بن قيس كان عظيم الكرم شديد الضغن على المسلمين مر على نفر من الأوس والخزرج فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . . . فأمر فتى شابا من يهود كان معه أن يذكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار وكان يوم بُعث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج . . . ففعل ، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا ، حتى تواتب رجلان من الحيين . . فتقاولا . . ثم قال أحدهم لصاحبه : إن شئتم ردونا الآن جذعة . . فبلغ ذلك رسول الله (صلعم) فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين الله - الله ، ابدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام . . . » فعرف القوم إنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً^(٢) .

ولكن هذا النزاع الذي كان بين الأوس والخزرج في الجاهلية اتخذ صورة جديدة في الإسلام ألا وهي تنافسهما في نصرة الرسول . فقد ذكر ابن إسحق : « ان هذين الحيين كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول النحلين لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن رسول الله إلا قالت الخزرج والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها . فلما قتلت الأوس كعب بن الأشرف لعداوته لرسول الله وتحريضه عليه استأذن الخزرج الرسول في قتل سلام بن أبي الحقيق اليهودي بخير فأذن لهم^(٣) .

١ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ ص ٣٤٥ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٥ ص ١٥١ .

٢ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

٣ - المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٤٥ .

ومثل هذه العصبية نجدها بين بطون قريش أيضاً . فقد كان بين بني هاشم وبني أمية منافسة قديمة ترجع إلى أيام الجاهلية .^(١) فلما جهر الرسول الهاشمي بدعوته نصره جلّ بني هاشم وامتنع أكثر بني أمية عن الدخول في دينه وعلى رأسهم شيخهم أبو سفيان وقد ظلت العداوة بين الأسرتين قائمة فترة طويلة .

ولا ننسى أن الجيش الإسلامي يوم فتح مكة وحنين والطائف لم يقاتل إلاّ كقبائل لكل منها شعارها الخاص : « شعار المهاجرين : « يا بني عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يا بني عبد الله » وشعار الأوس « يا بني عبد الله »^(٢) . « كذلك فعصبية النسب لم تذهب بعد الإسلام ذهاباً تاماً ولكنها تحولت إلى وجهة دينية . فاصبح أشرف الأنساب عندهم أقربها إلى قبيلة النبي قريش ، فالنسب القرشي أشرف الأنساب وللقريشيين التقدم في المناصب والمراتب والعطاء »^(٣) .

يضاف الى ذلك أن القصائد التي وضعت في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية من جانب شعراء المدينة وفخرها بالرسول والإسلام وهجاء قريش بهزيمتها وسوء عقيدتها ، ومن جانب مكة بهجاء الأنصار والمهاجرين والوعيد بأيام يثأرون فيها لأنفسهم ، يدل على أن العصبية الجاهلية لم تمح تماماً من نفوس الفريقين^(٤) فابن هشام يذكر العديد من القصائد في هذا المجال دون الإشارة إلى المنحول منها . فإذا ما صح ما روي عن طالب بن ابي طالب فهو في بدر يمدح الرسول (صلعم) ويبكي مصارع قريش ويتمنى لو اتفقت القبيلة مكيها ومدينيها على الأنصار . فقد كان محرّجاً بين النزعة القرشية العامة في وجه الأنصار وبين العاطفة الهاشمية الخاصة في وجه قريش^(٥) حتى ان قصيدة كعب بن زهير (بانث سعاد) كانت ذات صلة بالعصبية ؛ فان كعباً لما مدح رسول الله (صلعم) وخص معه قريشاً ، غضبت

١ - الضبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢٥٣ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٨ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

٣ - حرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ٤ ص ٣١٦ .

٤ - احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ص ١١٠ .

٥ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

الأنصار . فعاد كعب ومدح هؤلاء بقصيدة ترضية لهم . وهذا موقف يجمع بين آثار العصبية القديمة وسمات الوحدة الإسلامية الحديثة . كذلك ففي السيرة له قصائد عديدة يفخر فيها بقومه من الأنصار^(١) .

وخلاصة القول إن العقيدة الجديدة التي بشر بها الرسول (صلعم) ودعا من خلالها إلى قيام مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الاخوة الإسلامية في المجتمع العربي ، قد أخذ في إضعاف قوة الرابطة القبلية القديمة القائمة على أساس رابطة الدم ، لإحلال رابطة أشد متانة وتأثيراً هي الرابطة الدينية .

وهكذا فانه في هذه الفترة من حياة الدولة الإسلامية الذي كان فيها الرسول المرجع الأول والآخر فيما يتعلق بشؤون المسلمين الدينية والدنيوية لم يشهد ما يصح أن يسمى أحزاباً سياسية بالمعنى الكامل ، وإنما نواة حزبية أو بداية تكتلات ضمن الجماعة الإسلامية ، فهناك فئة المهاجرين وفئة الأنصار وهما الفئتان الأساسيتان في المجتمع الإسلامي إضافة إلى عنصر الأعراب وهم أفراد القبائل التي انضوت تحت راية الإسلام بعد عام الوفود سنة ٩ هـ . وقد بقيت فكرة الايمان والعقيدة هي المسيطرة في ذلك الحين .

١ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٧ .

الفصل الثاني

الخلافة ونشأة الحزبية السياسية

الحزبية السياسية في القديم والحديث هي قيام تكتل يضم جماعة من الناس لهم مصالح متقاربة وافكار متناسقة ولهم غايات موحدة ناجمة عن وضع موحد « فالحزب (الطائفة) كما في الاساس ، وفي لسان العرب ، هو الصنف من الناس . وهو كل جماعة الناس وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم ^(١) . كذلك « فالحزب جند الرجل جماعته المستعدة دوماً للقتال ونحوه . وحزب الرجل أصحابه الذين على رأيه ^(٢) .

أما عصر الرسول فكما أسلفنا لم يشهد نشوء أحزاب سياسية واضحة بل نواة حزبية أو بداية تكتلات في المجتمع الإسلامي فكان المسلمون من مهاجرين وأنصار آنذاك يدينون للنبي بالطاعة المطلقة وكانت كلمته القول الفصل في كل المسائل الدينية والاجتماعية والتشريعية ، إليها يرجع المؤمنون ، اذا طرأ خلاف بينهم ، فلم يكن من مجال لنشوء الفرق واختلاف المذاهب . وهذا ما عبر عنه البغدادي بقوله « كان المسلمون عند وفاة الرسول (صلعم) على منهاج واحد في اصول الدين

١ - ابن منظور : لسان العرب ج ١ ص ٦٢١ .

٢ - الزبيدي : تاج العروس مجلد ١ ص ٢٠٩ .

وفروعه غير من اظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً» (١).

ولكن الخلاف نشأ بين المسلمين بعد وفاة الرسول ، والاختلاف امر طبيعي بين البشر وقد عبر عن ذلك الرسول (صلعم) بقوله : «ليأتين على امتي ما اتى على بني اسرائيل تفترق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وستفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة كلهم في النار الا واحدة» (٢).

وما دام الخلاف طبيعياً في المجتمعات البشرية ، فلا بد من ان تمر الامة الاسلامية بمراحل من النزاع وفترات من الخلاف . ولا غرابة في اختلاف المسلمين بعد وفاة النبي (صلعم) وإن كانت بذور الخلاف الأولى قد بدأت عند مرض النبي ووفاته ودفنه . وقد أورد الشهرستاني ذلك تحت عنوان « في بيان أول شبهة وقعت في الملة الإسلامية ، وكيفية انشعابها ، ومن مصدرها ، ومن مظهرها » (٣).

ولكن النزاع ظهر بين المسلمين منذ بدأوا يفكرون عملياً في من يخلف رسول الله « فقد كانت المسألة التي اختلف فيها المسلمون بعد النبي هي مسألة الخلافة أو الإمامة » (٤) وكانت من اعظم العوامل على الإطلاق في ظهور الأحزاب السياسية في ذلك الحين ومن ثم في نشوء الفرق الاسلامية . فمسألة الخلافة هي مسألة سياسية لا علاقة للدين بها. فالمسلمون لم يختلفوا في أركان الاسلام ومبادئه بل تركزت خلافاتهم في موضوع الخلافة أو الإمامة ذي الصبغة السياسية .

فأول حركة سياسية بعد وفاة الرسول كانت مبادرة الأنصار من الأوس والخزرج الى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر خلافة الرسول ودعوا الى عقد الأمر لسعد بن عباد الأنصاري الخزرجي ، وقد علم بأمر اجتماعهم عمر بن

١ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٢ .

٢ - المصدر السابق : ص ٤ - ٥ .

٣ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٢ .

٤ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٣ .

الخطاب واخبر أبا بكر بالأمر فاصطحبها ابا عبدة بن الجراح ومضيا مسرعين نحوهم^(١) . والتقى المهاجرون والأنصار في سقيفة بني ساعدة وطبيعي أن يحدث التنافس والصراع على السلطة والإمارة بينهم ، فهم جميعاً مسلمون ولم يختلفوا في الدين ولكن بعض العصبية القبلية كانت لا تزال كامنة في نفوس كثير منهم ، فقد عبرت هذه الروح عن نفسها في تصرفات طائفة من الذين ظهروا على المسرح السياسي في المدينة بعد وفاة الرسول بساعات وتحكمت في سير الأحداث ومجرى الأمور التي توالى بسرعة مذهلة .

ففي هذه الفترة من حياة الدولة الإسلامية برزت في الساحة ثلاثة احزاب لكل منها وجهة نظر خاصة فيمن يخلف الرسول . « فعندما قبض رسول الله (صلعم) في شهر ربيع الاول سنة عشر من الهجرة افترقت الأمة ثلاث فرق : فرقة منها سميت الشيعة وهم شيعة علي بن ابي طالب عليه السلام ومنهم افترقت صنوف الشيعة كلها ، وفرقة منهم ادعت الامرة والسلطان وهم الانصار ودعوا الى عقد الامر لسعد ابن عباد الخزرجي وفرقة مالت الى بيعة ابي بكر بن ابي قحافة »^(٢) .

فأما حزب الأنصار فقد قوضت خطبة أبي بكر أركان الوحدة فيه ، وهذا الحزب لم يخلق فجأة يوم توفي الرسول بالذات ، بل اننا نرى ان اجتماع السقيفة الذي كان عن سابق تصور وتصميم قد انتهى بجماعة الأنصار إلى اتخاذ هذه الخطوة يوم وفاة النبي . والذي يؤيد هذا الرأي ماورد عن الرسول (صلعم) من اقوال مما جعل الانصار يشعرون بانهم سيضطهدون بعده . من ذلك قول الرسول للناس اثناء وضمه الذي توفي فيه « ستلقون بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض »^(٣) كذلك وصيته للمهاجرين بالأنصار : « أما بعد يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ،

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢ - ٣ .

٣ - البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٤٣ .

وانهم كانوا عييتي التي أويت اليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم »^(١) .

وكان لصدور مثل هذه الأقوال النبوية أثر في نفوس الأنصار الذين شعروا بالخوف من المصير السيئ ، فجمعهم هذا الشعور المشترك بالخطر على معنى واحد يعملون له متحدين وهو دعم مركزهم في الجماعة الإسلامية مما يجعلهم بمأمن من عدوان قريش وغير قريش ممن يضمرون لهم الضغينة ويظهرون لهم غير ما تكنه صدورهم .

فموقف سعد بن عباد الذي طمح إلى الإمارة يوم السقيفة قبل أن تنتزعها منه قريش لأبي بكر ، يعدّ امتداداً لموقفه من قريش يوم فتح مكة . فعندما مر بأبي سفيان زعيم قريش نظر إليه سعد وقال : « اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة اليوم اذل الله قريشاً »^(٢) ذلك انه اراد يوم فتح مكة ان يستأصل شأفة^(٣) القرشيين الذين لم يدخلوا بعد في الإسلام .

كذلك هناك موقف ثان يجسد المشاعر غير الودية التي كانت لدى سعد بن عباد وقومه من الأنصار تجاه قريش قوم الرسول عقب غزوة حُنين وقسمة غنائمها « حين اعطى رسول الله من تلك الغنائم قريشاً ولم يعط الأنصار شيئاً فوجدوا في انفسهم حتى قال قائلهم لقي رسول الله قومه »^(٤) .

ولكنه بمرور الأيام أخذ الأنصار يشعرون بأن القرشيين الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم فقاموا بمحاولات لكي يظهروا أنهم سادة في ديارهم وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم^(٥) . فعند وفاة الرسول قاموا بحركة قوية

١ - البخاري الصحيح : ج ٥ ص ٤٣ وكذلك ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٣٢٨ .

٢ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٦ وكذلك البخاري : الصحيح ج ٥ ص ١٨٧ مع تغير في اللفظ .

٣ - الشأفة : العداوة والاذى .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٩٣ وابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٥ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٦ .

لكي يحصلوا على حقهم في السيادة في مدينتهم اولي حافظوا على الاقل على استقلالهم فيها . ولكنهم نسوا ان المدينة منذ زمن بعيد لم تعد مدينتهم بل صارت مدينة الرسول التي جعل منها عاصمة جزيرة العرب وعاصمة الإسلام . وهكذا فقد ظهر الصراع بين المهاجرين والأنصار وكان عامل الخوف هو السبب الأول لظهور حزب الأنصار وقد كان هذا العامل في جملة ما احتج به اعضاء هذا الحزب لحقهم في الخلافة .

أما حججهم التي استندوا اليها لدعم موقفهم في سقيفة بني ساعدة فتألف كما يظهر من خطبهم من ثلاثة أمور :

١ - ان دارهم هي دار الهجرة في قول الحباب بن المنذر : « يا معشر الأنصار أنتم أهل الايواء والنصرة ، واليكم كانت الهجرة ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان »^(١) ففي ديارهم تكون المجتمع الاسلامي حيث استوفى خصائص المجتمع السياسي ، فكانت له حكومة وإدارة ونظام ودارهم هي الدار التي انطلقت منها الدعوة فاكتملت الجزيرة كلها .

٢ - انهم بذلوا في سبيل الدعوة الإسلامية دماءهم وأموالهم ونذروا أنفسهم للكفاح في سبيلها والدفاع عنها . يدل ذلك على ذلك قول الحباب بن المنذر في السقيفة : « وأنتم أحق بهذا الأمر فإن باسيا فكم دان الناس بهذا الدين »^(٢) .

٣ - خوفهم من قريش ان تصير اليها السلطة وتملك زمام الأمر فتنتقم منهم وتوقع بهم وقد قتلوا رجالها في حروب الإسلام . ويدل ذلك على هذا قول الحباب بن المنذر يوم السقيفة « منا امير ومنكم امير ، فان عمل المهاجري في الأنصاري شيئاً ، رد عليه ، وإن عمل الأنصاري في المهاجري شيئاً رد عليه »^(٣) .

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ٨ .
٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢ .
٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٧ .

كذلك فبعد مبايعة ابي بكر وتحول الامارة عن الانصار ، نرى الحباب بن المنذر يقول : « فعلتموها يا معشر الانصار ، أما والله لكانني بابنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم باكفهم ولا يسقون الماء . قال أبو بكر : أمتنا تخاف يا حباب ؟ قال ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك . إذا ذهبنا انا وانت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم »^(١) .

هذه هي حجج الأنصار التي احتجوا بها حول أحقيتهم بالخلافة . ولكن أبا بكر استطاع أن يوقظ العصبية القبلية الكامنة في نفوس فريق الأنصار من الأوس والخزرج حين قال مخاطباً الأنصار : « إن هذا الأمر إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصر عنه الأوس ، وإن تطاولت إليه الأوس لم تقصر عنه الخزرج . وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى وجراح لا تداوى ، فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين الحيين اسد يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري »^(٢) . وهذا ما جعل الأنصار ينقسمون الى فريقين ويندفع اسيد بن حضير سيد الأوس يقول لأصحابه : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت بهم عليهم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً »^(٣) .

ففي سقفة بني ساعدة إذن برزت العصبية القبلية في نفوس جماعتي الأنصار (من الأوس والخزرج) والتي لم يستطع الإسلام محوها نهائياً . فقد انقسم الأنصار وقام بشير بن سعد وكان حاسداً لسعد بن عباد وكان من سادة الخزرج فقال : « يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ؛ ما أردنا به الأرضار بنا وطاعة نبينا ؛ والكدح لانفسنا ؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ؛ فإن الله ولي المنة علينا بذلك ؛ ألا ان محمداً (صلعم) من قریش ، وقومه أحق به

١ - المنسوب لابن قتيبة : الامامة والسياسة ص ٩

٢ - الجاحظ : البيان والنبين ج ٣ ص ٢٩٨ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢١ .

وأولى . وأيم الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»^(١) .

ومن ثم بادر بشير بن سعد فبايع أبا بكر ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد قام اسيد بن حضير وهو رئيس الأوس فبايع سعداً بدافع الحسد والمنافسة فبايعت الأوس كلها لما بايع اسيد^(٢) .

ولم يغب عن أبي بكر أن الدافع للأنصار للقيام بهذه الحركة هو عامل الخوف فلمح في خطبته إلى ما يقتلح هذا الوهم من أنفسهم ويبعث الأمن والطمأنينة في نفوسهم حين قال : « وأنتم يا معشر الانصار من لا ينكر فضلكم في الدين ولا سابقتكم العظيمة في الإسلام ، رضىكم الله انصاراً لدينه ورسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه واصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم ؛ فنحن الأمراء وانتم الوزراء لا تُفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور»^(٣) .

والحزب الثاني هو حزب المهاجرين ؛ وهو الحزب الذي تمت له الغلبة في الميدان السياسي فاحرز السيادة حين تمت البيعة لابي بكر خليفة للمسلمين اما وجهة نظر هذا الحزب في خلافة النبي فقد « تأولت ان النبي لم ينص على خليفة بعينه وانه جعل الأمر الى الأمة تختار لنفسها من رضىته واعتل قوم منهم برواية ذكروها أن رسول الله (صلعم) أمر ابا بكر في ليلته التي توفي فيها بالصلاة بأصحابه فجعلوا ذلك الدليل على استحقاقه اياه وقالوا ، رضىه النبي (صلعم) ، لأمر ديننا ورضيناه لأمر دنيانا وأوجبوا له الخلافة بذلك»^(٤) .

اما منطلق هذا الحزب فيستند إلى دعامين: السبق والقرابة . فهذا ابو بكر

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢١ .

٢ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢١ .

٣ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٠ .

٤ - النوبختي : ف في الشيعة ص ٣ .

يحتج على الأنصار بقوله : « فهم (يعني المهاجرين) أول من عبد الله في الارض وأمن بالله وبالرسل ؛ وهم أولياؤه وعشيرته ، واحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم »^(١) ، كذلك فان الحق لقريش وحدها في خلافة الرسول (صلعم) كما يقول عمر بن الخطاب : « ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدَلَّ بباطل ، او متجانف لاثم ، ومتورط في هلكة »^(٢) ، وها هو يرد على الحباب بن المنذر في دعواه « منا أمير ومنكم أمير »^(٣) ، اي من قريش امير ومن الأنصار امير وهو الحل الوسط الذي عرضته الانصار في تلك المناورة السياسية . « ولكن هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين »^(٤) . وكان من نتيجة هذه المناظرة السياسية المثيرة « ان سكنت الأنصار عن دعواها لرؤية أبي بكر عن النبي عليه السلام الأئمة من قريش »^(٥) .

فالملاحظ للجدل الذي قام بين حزبي المهاجرين والأنصار في السقيفة أن مسألة الخلافة اتخذت في هذا الجدل صبغة سياسية لأصبغة دينية ويلاحظ هذا جليا في قول عمر بن الخطاب المتكلم بلسان حزب المهاجرين حين قال : من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ، وكذلك قول الحباب بن المنذر المتكلم بلسان حزب الأنصار : « املكوا ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا (يعني عمر) وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر »^(٦) .

وقد تناول بعض المستشرقين موضوع خلافة الرسول بالكثير من التجني

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .
 - ٢ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٠ .
 - ٣ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٦ .
 - ٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .
 - ٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧ .
 - ٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٠ .

والمغلاة في تصوير الأحداث . فالأب لامنس في مقاله : « الحكومة الثلاثية » يتهم ابا بكر وعمر و ابا عبيدة باتفاقهم في حياة الرسول على تولي الخلافة بالترتيب ؛ وأنهم كانوا يعملون منذ أمد طويل في موضوع خلافة الرسول ، وأنهم احتاطوا للأمر بشكل دقيق للوصول اليها »^(١) . كذلك فهو يربط بين الأحداث التي جرت منذ مرض الرسول حتى مبايعة ابي بكر ربطاً دقيقاً يوحي للقارئ بأن أعضاء هذا الثلاثي كانوا على أتم اتفاق وأنه « قد جرى توزيع السلطات بين أعضائه ، فعمر كان يمين أبي بكر ، وأبو عبيدة يسراه ، كذلك فعمر هو القاضي وأبو عبيدة القائد »^(٢) .

ولكنه يبدو من العسير علينا أن ننفي او نثبت أمر الاتفاق الثلاثي الذي اكده الأب لامنس وحاول دعمه بالكثير من الروايات والوقائع التي كانت عرضة للمناقشة والرد من قبل الدكتوراة زاهية قدورة في كتابها « عائشة ام المؤمنين » خاصة فيما يتعلق بدور عائشة في هذا الاتفاق حيث يتهمها بأنها بدأت نشاطها السياسي منذ زمن الرسول وأنها كانت تنصر ما يسمى بالحكومة الثلاثية بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، في أن يتولوا الخلافة بالترتيب السابق وأنها كانت تهيء الجول لنجاح هذا الاتفاق في منزل الرسول^(٣) ، فهم حاولوا إخراج الرسول في أثناء مرضه الأخير من بيت ميمونة إلى بيت عائشة وبقيت عائشة الشاهدة الوحيدة في الأسبوع الأخير لمرض الرسول^(٤) فهي تعتبر ان جميع هذه الادعاءات ينقصها الدليل وأن جميع الأقوال التي رويت عن عائشة في بيعة ابي بكر قد « رويت عن الرسول بعد وفاته وبعد ان بويع ابو بكر وذلك تقوية لمركزه في الخلافة بعد ان وجدت نفسها امام الامر الواقع وتمهيداً لاستخلافه عمر . وبالتالي يكون ادعاء لامنس في انها لعبت دوراً مهماً في

١ - Lammens, le Triumvirat » Abou Bakr, Omar, Abou Obaida -
p.115-116

٢ - Lammens ,le Triumvirat» «Abou Bakr , Abou Obaida P. 139-

٣ - زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢١٨ .

٤ - Lammens ,le Triumvirat . Abou Bakr, Omar, Abou Obaida P. 130-131-

استخلاف ابيها وحبكت المؤمرات من اجل ذلك غير صحيح «^(١) .

ومهما يكن من امر هذا الحزب فأقطابه من الرجال الثلاثة ، ابو بكر وعمر وابو عبيدة الكتلة الثلاثية التي ادارت شؤون المسلمين والإسلام بعد في المهد واستطاعت بفضل ما أوتيت من وعي ويقظة وحذب على الدعوة من خنق الفتنة في مهدها تلك الفتنة المتمثلة في الصراع على السلطة بين الأنصار والمهاجرين في سقيفة بني ساعدة ، والتي كانت ولاشك ستؤدي الى هدم وحدة المسلمين وتقويض أركان الدولة الاسلامية الفتية . وهذا ما عبر عنه ابو بكر بقوله : « لم أجد من ذلك بداً خشيت على امة محمد (صلعم) من الفرقة »^(٢) .

وهناك من يعتبر خلفه أبي بكر « مثلاً لعادة عربية قديمة ينتقل بحسبها منصب رئاسة القبيلة عندما يموت شيخها إلى من كان يتمتع في القبيلة بأعظم النفوذ ، فينتخب كبار القبيلة أحدهم لاملأ المكان الشاغر ويكون محترماً اما لسنه او لنفوذه او لخدماته المجيدة للصالح العام »^(٣) . فابو عبيدة يخاطب علياً بقوله « انك حديث السن وهؤلاء مشيخة قريش قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى ابا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، واشد احتمالاً له واضطلاعاً به »^(٤) .

كذلك فقد كان ابو بكر من اكثر المقربين الى الرسول وقد اختاره ليهاجر معه من مكة الى المدينة فكان « ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا »^(٥) . وقد ورد عن رسول الله قوله « لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابا بكر ، ولكن أخوه الاسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ ، إلا باب ابي بكر »^(٦) .

١ - زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٢٣ وللتفصيل انظر المصدر نفسه من ص ٢٢٢ - ٢٢٧ .

٢ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧١ .

٣ - ارنولد : الخلافة ص ٨ .

٤ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ١٢ .

٥ - القرآن الكريم : سورة التوبة آية ٤٠ .

٦ - البخاري : الصحيح ج ٥ ص ٥ .

أما الحزب الثالث فهو الحزب الهاشمي « وهم فرقة علي بن ابي طالب عليه السلام المسمون شيعة علي في زمان النبي (صلعم) وبعده معروفون بانقطاعهم اليه والقول بإمامته » (١) . وهو كحزب المهاجرين يذهب الى ان خلافة الرسول منحصرة في قریش ولكنه لم يذهب في التعميم بل كان يرى أن حق الخلافة منحصر في بني هاشم وعلى التخصيص في علي بن ابي طالب فهو ابن عم الرسول وهو اول الناس إسلاماً وزوج فاطمة بنت النبي (صلعم) هذا بالإضافة الى جهاده وفضله وعلمه التي وضعها في خدمة الدعوة الإسلامية . كذلك فإن اصحاب علي رأوا ان الخلافة ميراث ادبي ولو كان النبي يورث في ماله لكان أولى به قرابته فكذلك الإرث الادبي (٢) .

وقد كان عنصر القبيلة في حزبي الانصار والمهاجرين قوياً كما رأينا من تكوينهما العام ومن جدلهما في الميدان السياسي اما أعضاء الحزب الهاشمي فكانوا عناصر متباينة المنبت لا تجمع بينها اية وحدة قبلية بخلاف الحزبين السابقين فمنهم الكندي كالمقداد بن الاسود والعبد كسلمان الفارسي والغفاري كأبي ذر جندب بن جنادة الغفاري وعمار بن ياسر العنسي » (٣) . الى جانب غيرهم من عيون المهاجرين والأنصار .

والحزب الهاشمي كالحزبين الآخرين لم يكن ابن ساعته ولو فكرياً على الأقل فقد بدأ التفكير في امر خلافة الرسول اثناء مرضه الاخير كما تشير المصادر . « فالعباس بن عبد المطلب كان قد لقي علياً فقال : إن النبي يقبض ، فأسأله إن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيراً » (٤) وفي رواية الطبري « انطلق بنا الى رسول الله فإن كان هذا الأمر فينا علمنا وإن كان في غيرنا أمرنا ، فأوصى بنا

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٥ .

٢ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٦٦ .

٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٦ .

٤ - ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٣٣ .

الناس»^(١) فالتفكير في الخلافة كان يشغل أذهان المسلمين نظراً لأهمية هذا المركز من الناحيتين الدينية والسياسية .

ورجال هذا الحرب يستندون في تأييد وجهة نظرهم إلى أحاديث ينسبونها إلى النبي (صلعم) منها « ان النبي (صلعم) قد نص عليه وأشار اليه باسمه ونسبه وعينه وقلد الامة امامته ونصبه لهم علماً وعقد له عليهم إمرة المؤمنين وجعله أولى بالناس منهم بأنفسهم في مواطن كثيرة مثل غدير خم وغيره واعلمهم ان منزلته منه منزلة هرون من موسى صلى الله عليهما الا انه لا نبي بعده فهذا دليل امامته »^(٢) .

وبينا الهاشميون في شغل عما يحدث بين الحزبين السابقين في سقيفة بني ساعدة من الجدل واخذ المبايعه « كانوا يهتمون بتجهيز الرسول^(٣) » . تقرر مصير الخلافة الاسلامية بمبايعه ابي بكر في السقيفة دون أن يعلم احد من اعضاء الحزب الهاشمي بشيء مما تم حينذاك حتى اذا خرج القوم من السقيفة إلى المسجد ، أتاهم نبأ ما توصل إليه المجتمعون . ومما لاشك فيه أن علياً ومن معه فوجئوا بهذا النبأ كأنهم اخذوا على حين غرة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك . الا العباس بن عبد المطلب فانه كما يدولنا من خلال الحاحه على ابن اخيه علي بن ابي طالب في طلب الخلافة دون ابطاء كانه يحس بان في الجوشيثا ، وبأن الأمر يوشك ان يفلت من ابن اخيه ، فهو يقول لعلي : « امدد يدك أبايعك ، يبايعك الناس » . وفي رواية اخرى يقول « يا علي قم حتى أبايعك ومن حضرنا ، فإن هذا الأمر إذا كان ، لم نرد مثله والأمر في أيدينا فقال علي : واحد يطمع فيه غيرنا . قال العباس أظن والله سيكون »^(٤) .

وتختلف الأحاديث حول مبايعه علي لأبي بكر بالخلافة . ففي رواية « أن علياً

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٩٤ .

٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٦ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢١٩ .

٤ - ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٤٦ وابن ابي الحديد : شرح النهج ج ١ ص ٦٠ .

كان في بيته اذ أتى فقيل له : قد جلس ابو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء ، عجلأ ، كراهية أن يبطىء عنها ، حتى بايعه «^(١)» . وفي رواية اخرى عن الزهري « قال رجل للزهري : أفلم يبايعه علي ستة أشهر ! قال : لا ، ولا أحد من بني هاشم ؛ حتى بايعه علي »^(٢) . والأرجح أن بيعة علي قد تأخرت بعض الوقت وذلك بسبب سوء العلاقة التي نشأت بين فاطمة وابي بكر بشأن ميراثها من فذك وخيبر وذلك حين ذكر أبو بكر ما سمعه عن الرسول (صلعم) « لا نورث ما تركنا فهو صدقة ، انما يأكل آل محمد في هذا المال . . . فهجرت فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت »^(٣) .

والمصادر تذكر الجدل الذي دار بين الحزب الهاشمي بمثلاً بعلي وحزب المهاجرين حول موضوع الخلافة والصراع على السلطة بمفهومها السياسي وحول أحقية كل فريق في خلافة النبي (صلعم) . فعلي كان يرى أن القوم قد عدوا على حق له ، فسلبوه اياه فيقول مخاطباً ابا بكر : « انا احق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، اخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، أستم زعمتم للأنصار ، إنكم أولى بهذا الأمر منهم ، لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة . وانا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار »^(٤) ، كذلك قوله « احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة »^(٥) من جملة ما احتج به علي على خلافة أبي بكر يريد ان المهاجرين احتجوا بانهم من شجرة النبي (صلعم) فاولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبي أنهم من ثمرة قريش وهم قرابته . وسواء صح هذا القول من علي أم لم يصح فهو تعبير صادق عما في نفسه .

١ - الط : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٧ .

٢ - الط : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ .

٣ - الط : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ .

٤ - ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١١ وفي الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ . يقول علي لابي بكر « لكننا نرى ان لنا في هذا الامر حقاً ، فاستبددتم به علينا » .

٥ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٤ .

وقد استند الحزب الهاشمي كحزب المهاجرين بالسبق والقرابة حول احقية بالخلافة ، وكان السلاح الذي شهره علي في سعيه لانتزاع الخلافة من « تيم » رهط أبي بكر واعادتها الى بيت الرسول وآله ، وذلك باستخدامه الرباط المقدس الذي يجمعه بفاطمة ابنة النبي فيربطه بالرسول ويجعله من آل بيته . « فكان يخرج ليلاً راكباً حماراً ويطوف بها على مجالس الأنصار وحياتهم تسألهم النصر لعل في قضية الخلافة ولكنهم كانوا يقولون لها « يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل »^(١) فالأنصار كانوا قد بايعوا أبا بكر ، والبيعة عند العربي عهد يعطيه فيملكه ولا يستطيع منه فكاكاً ، وهي تدل على ما للكلمة من حرمة وقُدسية عند العربي .

على أن علياً بايع ابا بكر ودخل فيما دخل فيه المسلمون . بعد موت فاطمة يقول الطبري في هذا الصدد : « وكان لعل وجه من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت انصرفت وجوه الناس عن علي . . فضرع الى مصالحة ابي بكر »^(٢) .

وبعد فالتبع للجدل الذي قام حول مسألة الخلافة والأحاديث المتصلة بها وموقف كل حزب من الأحزاب التي ظهرت على الساحة الإسلامية يستطيع أن يقول : إن الاتجاهات الحزبية قد بدت واضحة المعالم بعد وفاة النبي محمد (صلعم) وقد ظهرت من انقسام المسلمين إلى ثلاثة أحزاب .

وكان التزاحم والصراع على السلطة هو المؤثر والمحرك الفعال في كل هذه الاحداث وقد شغلت تلك المسألة السياسية تفكير المسلمين في ذلك العصر ، كما كان للعصبية القبلية الدور الفعال في هذه الاحداث والتي حاول الرسول جهده في محوها من النفوس واحلال الرابطة الدينية مكانها ، ولكننا نراها بعد وفاته قد برزت سافرة عن وجهها ، وعادت لتتحكم في مجرى الأحداث .

١ - المصدر السابق ج ٦ ص ١٣ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٨ .

فالأنصار عندما اجتمعوا في السقيفة ليبايعوا سعداً إنما لبوا داعي العصبية . فهم كانوا يعلمون بأن في المهاجرين من هو أتقى وأفضل من سعد بن عبادة ، وكذلك الأوس فقد اندفعت بداعي العصبية الى المبادرة لببيعة ابي بكر لتدفع الامارة عن الخزرج ، وجنوح المهاجرين الى هذه العصبية جلي في حججهم يوم السقيفة . فاحتجاج المهاجرين باقوال منسوبة إلى الرسول « الائمة من قريش » إنما هو بدافع العصبية القبلية . « فقد رأى الحزب القرشي أن تكون دائرة الاختيار محصورة في قريش لأن العرب اطوع للقرشيين ولأن الخليفة ينبغي ان يكون ذا عصبية تشد ازره وتحمي ظهره ولا قبيلة في العرب أعز من قريش »^(١) .

وهذا ما عبر عنه ابن خلدون « ذلك انه لا بد في الرئاسة على القوم ، ان تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة ، لان كل عصبية منهم إذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم اقروا بالإذعان والاتباع »^(٢) كذلك « فإن قريشا كانوا عصبية مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، فكانت سائر العرب تعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم . فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلافة ولا يحملهم على الكره فتفرق الجماعة وتختلف الكلمة . . . فاشترط نسبهم القرشي في هذا المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكونوا أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة »^(٣) .

كذلك فالعصبية القبلية هي التي دفعت أبا سفيان إلى أن ينادي بعيد وفاة الرسول (صلعم) « يا آل عبد مناف فيم ابو بكر من اموركم ويقول ما لنا ولا بي فصيل إنما هي بنو عبد مناف » وقوله « ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش »^(٤) يقصد بني مرة رهط ابي بكر . فزعامة قريش كانت في آل عبد مناف أعز قريش قبيلًا وأكثرها

١ - احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٠٨ .

٢ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣١ .

٣ - المصدر السابق : ص ٣٤٦ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٩ .

عددا على اختلاف ذات بينها من هاشمية واموية . اما تيم بن مرة رهط ابي بكر فكان كما عرفها أبو سفيان أقل حي في قريش . فأبو سفيان الذي حارب ابن عمه الرسول فيما سبق ، انما كانت دعواه بداعي العصبية ، فهو كان ينظر إلى الرسول ومركزه بين قومه نظرة زعيم عربي إلى ابن عم منافس له في الزعامة قد توارثا المنافسة على الزعامة منذ الجاهلية . أما الآن فهو لا يرى أن تخرج الزعامة من بيت ابن عمه إلى بيت قصي عنه ، بعد أن خرجت من بيته لذلك فهو يقول لعلي :

بنبي هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة او عدي
فما الامر إلا فيكم واليكم وليس لها إلا ابو حسن علي^(١)

ويقول لعلي ايضا : ابا حسن ابسط يدك حتى أبايك فهو الآن يحقق المثل الشعبي المعروف : « مع اخيه وابن عمه على الغريب » ولكن التفاهم عاد فتم بين ابي سفيان وبين الحزب الحاكم ، بعد تعيين ابنه يزيد اميراً على الجيش الغازي سورية ف قيل له : « انه قد ولى ابنك » قال : وصلته رحم^(٢) .

وقد كثرت الأحاديث والأقوال المنسوبة إلى كل حزب من هذه الأحزاب في احقية كل منهم في الخلافة . وجميع هذه الأحاديث ترجع عندنا أن النبي لم يستخلف احداً بشكل صريح ولم يجعل الخلافة في بيت مخصوص وان اختلاف الأمة في مسألة الخلافة ، انما نشأ من فقدان النصوص الصريحة .

ولعل اجماع المسلمين يومئذ على جعل الخلافة في قريش كان في سبيل المصلحة العامة ، ذلك ان العرب كانت تقرُّ لقريش تقدمها ورئاستها والمقصود من اختيارها حين نذبت للخلافة العصبية ، لأنها كانت صاحبة العصبية اي الكلمة المسموعة .

واما اختيار ابي بكر دون علي فربما كانت الغاية منه الفصل بين بيت النبوة

١ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٧ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٩ .

وبيت الخلافة حتى لا تكون شبهة توحد بين السلطتين وتربط بينهما ربطاً دينياً أبدياً ، كما ورد على لسان عمر بن الخطاب في حديثه لعبدالله بن عباس « إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم ببجحا ، ببجحا فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت »^(١) .

كذلك فقد رأت الزيدية في إمامة ابي بكر « ان الخلافة فوضت الى ابي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها في تسكين نائرة الفتنة وتطبيب قلوب العامة ، فان عهد الحروب التي جرت في ايام النبوة كان قريباً ، وسيف امير المؤمنين علي عليه السلام من دماء المشركين من قريش لم يحف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكانت المصلحة ان يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الاسلام والقرب من رسول الله »^(٢) .

كذلك فمن المستشرقين من رأى أثر العصبية القبلية والشعور القبلي في عدم تعيين النبي (صلعم) خلفاً له لأنه « كان يدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في اشكال حياته السياسية البدائية ، بل كان يترك لأعضاء القبيلة أمر انتقاء اميرهم الخاص »^(٣) .

وهكذا فاننا نرى أن مشكلة الخلافة الإسلامية في ذلك العصر قد فتحت ابواب الصراع بين المسلمين على السلطة بمفهومها السياسي وإن كان الدين ستاراً صبغ هذه الخلافات «فأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان»^(٤) وهكذا « فان بيعة

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٢٣ وقريباً منه ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١٢ ص ٥٣ .

٢ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

٣ - ارنولد : الخلافة ص ٧ .

٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣ .

ابى بكر كانت فلتة . . . غير ان الله وقى شرها «^(١)» ، وكانت مقدماتها الأولى كنتائجها ذات طابع سياسي ، يتلخص في اختيار شخص دون آخر لتسلم مقاليد زمام الخلافة ، وأدت من ثم إلى ظهور الأحزاب السياسية في المجتمع الاسلامي . وكانت العصبية سيدة الموقف فيها .

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٠٥ .

الفصل الثالث

الأبعاد الحزبية في عهدي ابي بكر وعمر

في عهد ابي بكر

ما كاد ابو بكر يفرغ من مشكلة المبايعة بالخلافة حتى واجه مشكلة الردة التي كانت من أخطر الانتكاسات التي واجهت المسلمين ، وهددت كيان الدولة الاسلامية الفتية . فقد كانت الردة نوعاً من الانتكاس الديني والسياسي تورط فيه العرب قبيل وفاة الرسول (ﷺ) وفي بداية عهد ابي بكر .

ففي حياة الرسول (ﷺ) ارتد بعض المسلمين ، كعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي « أسلم وهاجر إلى المدينة وكتب الوحي لرسول الله ، ثم ارتد مشركاً وصار إلى قريش بمكة . فلما كان يوم الفتح أهدر الرسول دمه » وأمر بقتله ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة ، ففر عبد الله إلى عثمان ، وكان اخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله (ﷺ) فاستأمنه « . كذلك عبد الله بن خطل الذي كان مسلماً وارتد مشركاً^(١) وعبيد الله بن جحش زوج ام حبيبة فإنه « أسلم معها

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٥٩ والبلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٩ .

وهاجر إلى الحبشة فتنصر هو ومات على نصرانيته «^(١) وعلقمة بن علاقة وكان أسلم ثم ارتد في زمن النبي (ﷺ) ولحق بالشام بعد فتح الطائف «^(٢) .

كذلك فإن فريقاً من العرب أظهروا الردة قبل وفاة النبي (ﷺ) فظهر بينهم بدع جديد هو التنبؤ ، لا لأنهم ضاقوا بالزكاة وآثروا المال على الدين بل « لأنهم نفسوا على فريش ان تكون فيها النبوة ، وان يهيأ لها ما هيء من هذا السلطان بما له من قوة وبأس وهكذا فقد غلب مسيلمة على اليمامة ، والاسود على اليمن وادعى طليحة النبوة وعسكر بسميراء «^(٣) . ولكن الامر ازداد سوءاً في الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول (ﷺ) ، ذلك ان معظم القبائل العربية ارتدت عن الاسلام باستثناء قريش وثقيف «^(٤) . وهكذا كان على الخليفة الاول ان يواجه هذا الوضع الخطير في حياة الدولة الاسلامية . على ان ابا بكر كان رجل الساعة ، وشديد الثقة بمستقبل الاسلام ، فلم يضعف امام هذا الخطر ، برغم عدم وجود الجيش اللازم لديه حينذاك ، اذ انه كان قد استجاب لرغبة الرسول فانفذ الجيش الى بلاد الشام بقيادة اسامة بن زيد بن حارثة «^(٥) . وقد بعث انتصار اسامة البشر في نفوس اهل المدينة بعد ان احزنتهم حروب الردة واصبح لانتصاره من الاهمية حيث اعتبر فيما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام .

وبعد عودة جيش اسامة سار ابو بكر بنفسه الى ذي القصة لمحاربة القبائل من عبس وذبيان وطيء الذي دخلوا في حلف بني اسد وعلى رأسهم طليحة الاسدي فانتصر عليهم وغلب علي بني ذبيان واجلاهم عن بلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم . وقد كانت هذه الحملة « اول الفتح » «^(٦) . وتتابعت انتصارات المسلمين واستطاعوا القضاء على المرتدين وقد كان موقف ابي بكر

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٦٥ .
 - ٢ - ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٦ .
 - ٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٨٦ .
 - ٤ - المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٤٢ .
 - ٥ - المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٢٥ .
 - ٦ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣٣ .

حازماً من تلك الثورات لانه وجد فيها خطراً يهدد كيان الدولة الاسلامية الناشئة كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة تهدد بعودة العرب سيرتها الأولى في الجاهلية من التنابد والفرقة وغيرهما من الأمور التي من شأنها ان تزعزع اركان الدين الاسلامي . وكان موقفه من رؤساء القبائل المرتدة واشرافها مستوحى من روح الاسلام ومقتضيات التدبير السياسي معاً « فقتل منهم من قتل وعفا عن طائفة منهم واصطنعهم كالأشعث بن قيس الكندي »^(١) .

ويقول « ميور » عن أسباب نجاح المسلمين في القضاء على المرتدين : « وانما يرجع الفضل في تنويع هذه الجهود بالنصر والظفر الى تلك الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين »^(٢) .

ولكن هل كانت حركة الردة ردة دينية ؟ ام كانت لها أبعاد حزبية ؟
فالحقيقة أن الردة لم تكن دينية فقط بل من الواجب أن نفرق بين نوعين من المرتدين : « فأكثر المرتدين الذين ارتدوا في عهد الصحابة انما ارتدوا باسقاط وجوب الزكاة ، وهم المرتدون من بني كندة وتميم . أما الفريق الثاني منهم الذين كفروا من وجهين ؛ أحدهما اسقاط وجوب الزكاة والثاني دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة ، واكثر المرتدين من بني حنيفة وبني أسد »^(٣) .

ذلك انه بعد انتشار خبر وفاة الرسول (ﷺ) تربص العرب واشرايت أعناق الجميع الى المدينة يتنسمون أخبارها . واذا بهم يسمعون أخبار بيعة ابي بكر وما جرى يومذاك بأوسع مما بلغنا فبلغهم تناحر اصحاب الرسول (ﷺ) على البيعة ، وتأخر عامة بني هاشم ثم رهط النبي (ﷺ) ، وامتناع سعد بن عبادة رئيس الخزرج عنها ، الى غير ذلك مما وقع في ذلك الوقت . لذلك « اعتزلت فرقة عن ابي بكر فقالت لا نؤدي الزكاة اليه حتى يصح عندنا لمن الأمر ، ومن

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

٢ - Muir The Caliphate P. 81.

٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٣١ .

استخلفه رسول الله (ﷺ) بعد ونقسم الزكاة بين فقرائنا وأهل الحاجة منا « (١) »

ففي الواقع ان الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة الآ نادراً وكل ما في الأمر أن بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتبعة في المدينة ، فأعلن بعض المرتدين انهم لا يزالون راغبين في ان يعبدوا الله ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة لغير النبي : « فقد حسبت قبائل العرب انها انما بايعت للنبي (ﷺ) فحسب وساد بين العرب الرأي القائل بان هذه البيعة لا تربط صاحبها الا بشخص من أعطيت له . فبعد أن توفي النبي (ﷺ) ارتدوا عن الاسلام لكن ارتدادهم لم يكن عن الايمان بالله بل هم ارادوا التنصل من حكومة المدينة « (٢) . ذلك ان كثيراً من قبائل العرب عدّوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا إليها نظرتهم الى قبيلة تتسلط على أخرى وتضرب عليها الاتاوة فانتهزوا موت الرسول (ﷺ) وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها لابي بكر . وفي هذا يقول قرة بن هبيرة لعمر بن العاص : « يا هذا ان العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة فان أنتم اعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم « (٣) .

فقد ادركت هذه القبائل بان تولي أحد القرشيين الخلافة معناه التسليم بحق قريش في الاستئثار بالأمر دون سائر القبائل العرب ولئن ارتضت هذه القبائل الإذعان للرسول فإنما لنبوته وليس لقريشته وقد عبّر الحطيئة عن شعورهم هذا في قوله يخاطب قومه ويحثهم على الارتداد :

اطعنا رسول الله ما كان بيننا
فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورها بكراً اذا مات بعده
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر (٤)

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٤ .

٢ - فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٢ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٥٩ .

٤ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغانى مجلد ٢ ص ٧٧ ، والمبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ٢٣٢ .

فقد كرهت هذه القبائل سيادة قريش وظنوا انها قد سلبتهم حريتهم وادخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين وكرهوا ان يؤدوا الضريبة الى قبيلة من القبائل العربية وهي قريش ، وإلى رجل يعينه من هذه القبيلة وهو ابو بكر . واعتبروا انه من المحتمل إذن ان يحكم من يخلف الرسول (ﷺ) هو اهله وعشيرته في الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي مركز الخلافة من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة ويغض من شأن غيرها من القبائل . هذا هو الشعور الذي شاع في القبائل التي ارتدت عن الاسلام . وكانت العصبية هي التي دفعتهم للإرتداد عن دين الله من أجل ابعاد منصب الخلافة عنهم .

ويعلق الدكتور طه حسين على أسباب هذه الردة بقوله : « فقد نفست قحطان على عدنان ان يكون لها نبي من دونها ، فظهر فيها الأسود العنسي . ونفست ربيعة على مضر ان تستأثر من دونها بالنبوة ، ونفست اسد وتميم المضريتان ان تستأثر قريش بالنبوة من دون سائر مضر ، فظهر طليحة في بني اسد وظهرت سجاح في بني تميم »^(١) .

وهكذا فالعصبية القبلية هي التي دفعت هذه القبائل الى ادعاء النبوة^(٢) . وذلك تحلاً من شعائر الدين وتقاليد الحكومة القرشية ، وخروجاً على هذا النظام السياسي الذي يخضع البدو لسلطة المدينة او لقريش^(٣) .

كذلك فان تعلق افراد القبائل العربية بالحرية الجاهلية وطمع رؤسائهم في السيادة ، التي تمتعهم بسلطان ما في بعض أنحاء الجزيرة العربية هي التي دفعتهم الى الإرتداد . وقد اتخذوا لذلك وسائل شتى : كالنبوة ، والثورة ، ومنع الزكاة

١ - طه حسين : الخلفاء الراشدون مجلد ٤ ص ١٤ .

٢ - ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٢ « كان طليحة بن خويلد من بني اسد بن خزيمه قد تنبأ في حياة الرسول . . . وتبعه كثير من العرب عصبية فلهدا كان اكثر اتباعه من اسد وغطفان وطني » .

٣ - المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٣١ : « . . . ارتدت غطفان تبعاً لعينية ابن حصن فانه قال بنبي من الحليفين يعني اسد وغطفان احب الينا من نبي من قريش » .

وطرد ولاية الحكومة ومهاجمة المدينة نفسها^(١) .

وقد اتخذ بعض المستشرقين (كفان فلوتن) ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام بعد وفاة الرسول (ﷺ) دليلاً على أن الإسلام قام بحد السيف ، وان الخوف وحده هو الذي ادخل العرب في هذا الدين^(٢) . وواقع الحال يشير إلى ان فريقاً من العرب الذين ارتدوا عن الإسلام لم يكونوا مسلمين حقاً لأن السواد الأعظم منهم كان من هؤلاء الأعراب الذين لم يؤثر الدين في قلوبهم : « قالت الأعراب آمنا ، قل لن تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم »^(٣) « والأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله »^(٤) .

وهناك من يرى « ان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشاراً واسعاً بعد وفاة الرسول مباشرة دليل على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام وان قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية »^(٥) ، وهذا القول ينطبق على الأعراب أيضاً .

وهكذا فإن ما وصف بالردة في عصر أبي بكر لم يكن بالارتداد عن الإسلام . وانما كانت قضية تتعلق بالخلافة من جهة وبيعة أبي بكر من جهة ثانية ومرد هذين الأمرين سياسي لا شأن للدين فيه . و إن المعارضين من القبائل العربية لبيعة أبي بكر دفعتهم عصبيتهم القبلية إلى معارضة قريش التي سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين . فالردة اذن كانت سياسية تهدف إلى الثورة على فكرة السلطة المركزية في الحكم وعلى العصبية القبلية المتمثلة في قريش والتي تعارض فكرة استقلالية القبائل وتفرض عليهم اعباء مالية لا عهد لهم

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ وابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٢٣٢ .
 - ٢ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٥ - ٦ .
 - ٣ - القرآن الكريم : سورة الحجرات آية ١٤ .
 - ٤ - المصدر السابق : سورة التوبة آية ٩٧ .
 - ٥ - ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٤٣ .

بمثلها من قبل كدفع الزكاة مثلاً .

وهكذا نلاحظ في حركة الردة ظهور اتجاهين حزيين في هذه الفترة من خلافة ابي بكر . الاتجاه الاول يتمثل في ظاهرة القبائل العربية التي عارضت البيعة لابي بكر او اعترضت على الخلافة في قريش بالذات مدفوعة بالعصبية القبلية . وبالرغم من تعدد تلك القبائل واختلاف عصبيايتها فانها كانت تشكل اتجاهاً حزبياً موحداً يتمثل في معارضة سلطة المدينة المتمثلة بقريش . وبالمقابل كان الاتجاه الآخر المتمثل في السلطة الشرعية ، سلطة المدينة او سلطة قريش . ولكن فكرة الحزبية السياسية لم تظهر بشكل واضح ودقيق في هذه المرحلة ايضاً لان الحروب التي شنت ضد المرتدين من دون هواده ، والتي تمكنت من اخضاعهم لم توفر لهذه القبائل المرتدة اثبات وجودها وتركيز اتجاهاتها الحزبية .

ولا يخفى انه كان لظاهرة الردة وما رافقتها من حروب واحداث اثر في تشكيل المجتمع الاسلامي فيما بعد . ذلك ان المجتمع انقسم الى فئتين : فئة الذين ارتدوا عن الاسلام ثم اعيدوا الى حظيرته وبقي شيء من الحذر لدى السلطة في التعامل معهم وفئة الذين ثبتوا على الاسلام وحاربوا من اجله ، وكانت السلطة تنظر الى التعامل معهم بعين الثقة .

وهكذا نجد في عهد الخليفة الاول ان السياسة الاسلامية شهدت لونا من الحذر في تقبل المرتدين واندماجهم في المجتمع الاسلامي . ويحدثنا الشعبي أن ابا بكر « كان لا يستعين في حربه باحد من أهل الردة حتى مات »^(١) كذلك فقد كتب إلى عماله : « لا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو »^(٢) .

اما الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فيتجه بالمرتدين وجهة جديدة اذ يأذن لهم ان يشاركوا في الحرب ، وأن يكونوا في الجند ، ثم يحدد سلطانهم في خطوة اخرى بما دون المائة ويكتب الى سعد : « ان لا يولي رؤساء اهل الردة على

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥ .

٢ - المصدر السابق : ج ٣ ص ٣٤٧ .

هائلة»^(١) على ان الخليفة الثالث عثمان يسقط عنهم آخر اثار العقوبة فيأذن « باستعمال من كان ارتد استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فساداً ان سادهم من طلب الدنيا ، وعضّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :
وكنّت وعمراً كالمسمن كَلْبَسَهُ فَخَذَّشَهُ انيابه واطافِـرُهُ »^(٢)
ولا يخفى ان هذه الفئة التي ارتدت عن الاسلام واتخذت لها العراق مقراً سيكون لها دور في احداث العراق الثورية في العصر الاموي .

ولكنه بقمع حركة الردة خفت صوت العصية شيئاً فشيئاً وادرك زعماء القبائل العربية الذين كانوا يحلمون باسترجاع امجادهم القديمة ، ان الدولة الاسلامية اصبحت وطيدة الاركاب وان عهد الاستقلال القبلي الذي لا يعترف بسلطان فوق سلطان القبيلة قد انقضى ، وان فضل قريش على سائر القبائل العربية لا سبيل الى دفعه والاعتراض عليه فلم يسعهم الاّ الاذعان للامر الواقع فاخذوا يتنافسون في اظهار ولائهم للدولة القائمة للاحتفاظ بمناصب السيادة في قومهم . ومثل هذا الامر يحدث في ظل المجتمعات المتكاملة ذات السلطة النظامية .

في عهد عمر بن الخطاب

ما ان انتهت حروب الردة حتى اندفع المسلمون خارج الجزيرة العربية حيث قاموا بالفتوحات في فارس وبلاد الروم . وقد بلغت هذه الفتوحات اوجها في ايام عمر بن الخطاب الذي شغل العرب بالفتوحات الخارجية مستغلاً اندفاعهم منذ الجاهلية ، وايام الرسول ، وخليفته الأول ، واشغالاً لهم عن التناحر فيما بينهم إذا ما فرغوا لأنفسهم فيعود بأسهم بينهم شديداً^(٣) ، وبذلك يتحقق هدف الإسلام ورسالته العامة .

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٣ ص ٥٥٧ .

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ١٥٨ .

٣ - Lammens. Le berceau de l'islam PP. 175- 77 .

ولكن الملاحظ في هذه الفتوحات ان عمر بن الخطاب قد استثنى قريشاً منها ومنع رؤساءها من ترك المدينة وحصرهم فيها . فهو يقول : « اخوف ما اخاف على هذه الامة انتشاركم ، فإذا جاء الرجل منهم يستأذنه في الغزو اجابه : قد كان لك من غزوك مع رسول الله ما يبلغك وخير لك من غزوك اليوم ان لا ترى الدنيا ولا تراك »^(١) . فقد خاف عمر على قريش من استثمار الاستئثار السياسي بالإمارة في الثراء ، وحيازه الاقطاعات ، فحصرهم في المدينة حتى ولو كانت مغادرتهم لها تحت شعار الجهاد في سبيل الله مخافة ان يكونوا لهم عصبية اسلامية في اقطار الدولة فتشقق وحدتها وتتداعى اركانها وهي قرية العهد بالتناوب الجاهلي . على ان عمر بن الخطاب لم يميز قريشاً فقط عن سائر افراد المجتمع الإسلامي بل كان اول خليفة فضل العرب وجعل لهم ميزة على سواهم ومنع من سببهم فهو يقول : « قبيح بالعرب ان يملكوا بعضهم بعضاً وقد وسع الله عز وجل وفتح الأعاجم . لذلك فقد فدى سبايا العرب منذ الجاهلية والإسلام »^(٢) . كذلك فهو يوصي عماله على الاقاليم بقوله : « . . . ولا تجلدوا العرب فتذلوا ، ولا تجمروها فتفتنوها ولا تقفلوا عنها فتحرموها »^(٣) .

كما كان عمر بن الخطاب يوصي العرب بحفظ انسابهم لئلا تضعع عصبيتهم : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن اضله قال ، من قرية كذا »^(٤) وهكذا « فان عمر قد خلق روحاً معيناً عند العرب جعلهم ارستقراطية الاسلام »^(٥) فالدولة الاسلامية كانت تشتمل على طبقتين من المواطنين متميزتين من الناحيتين السياسية والدينية . وكان سادة هذه الدولة هم العرب . اما الطبقة الثانية فهي طبقة غير العرب وهم الرعايا الخاضعون . وقد

١ - بن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٩١ .

٢ - المصدر السابق : ج ٢ ص ٢٦٠ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٠٤ .

٤ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

٥ - زاهية قدورة : الشعبية واثرها الاجتماعي والسياسي ص ٣٩ .

كا . لهذا التميز في المجتمع الاسلامي اثره في خلق طبقة مميزة تتمتع بالنفوذ واسيطرة وتعالى على سواها . وهذا مظهر من مظاهر العصبية ، ولكن هذه العصبية ذات الصبغة العربية ادت فيما بعد الى نشوء عصبية تواجهها هي عصبية الموالي من غير العرب . وقد اتخذ هذا التميز له مركزاً جلياً في عهد عثمان وفي عصر بني امية خاصة .

والملاحظ ايضاً ان المسلمين في حروب الفتوحات ، استفادوا من النظام القبلي في الاغراض الحربية ، فقسموا الجيش على اساس القبائل واسكنوا المستعمرين في الأراضي المفتوحة على اساس القبائل ايضاً^(١) . فهذه القبائل التي شاركت في الفتوحات اخذت تتجمع في الحواضر والامصار وتستقر جنباً الى جنب وترتبط فيما بينها ، بأنواع من الروابط الجديدة كالجوار والعطاء والمسجد ؛ فتكونت من ذلك كتل جديدة كبيرة وهي التي يسميها المؤرخون الاسباع^(٢) . فالتنظيم الاداري والحربي كان ملزماً بمراعاة الاعتبارات القبلية ، فقد قام تخطيط الأمصار على اساس القبائل . ففي تخطيط الكوفة روعي انقسام العرب الى أصليين : نزاری ویماني . فقد ذكر المؤرخون « ان سعد بن ابي وقاص حين اختط الكوفة اسهم لنزار واهل اليمن ، فخرج سهم اهل اليمن في الجانب الشرقي وسهم نزار في الجانب الغربي »^(٣) ثم اختط كل فريق جزءاً من ارضه حسب القبائل^(٤) وقد ادى هذا الاحتكاك بين القبائل العربية في الأمصار المفتوحة إلى إثارة الروح القبلية والعصبيات منذ عهد عثمان . ذلك أن العرب حين رحلوا الى العراق كانوا يحملون في نفوسهم بعضاً من العصبية القبلية التي لم تمح نهائياً . وقد تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنوها . فعرب الكوفة ومواليها يتعصبون للكوفة^١ وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة .

١ - حَتَّى - تاريخ العرب المطول ص ٣٥ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٨ .

٣ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٥ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥ .

وهكذا نشأت عصبية من نوع جديد ، هي عصبية الأمصار المفتوحة وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد بين قبائل تلك الأمصار . فكان عرب الكوفة اذا قاتلوا عرب البصرة انحازت كل قبيلة ناحية وقاتلت مثلتها من الجانب الآخر ، فيمن الكوفة يقاتلون يمن البصرة او ربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة ، ومضر الكوفة تقاتل مضر البصرة^(١) .

كذلك فان وضع ديوان العطاء ايام عمر كان له اثر كبير من طريق غير مباشر في ظهور العصبية وتحدد معالمها وخطوطها البارزة . فحين فرض عمر بن الخطاب العطاء في سنة عشرين للهجرة^(٢) لم يسو بين المسلمين في العطاء كما فعل النبي (ﷺ) وابو بكر ، بل جرى على مبدأ التفضيل : « فضل السابقين على غيرهم ، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين وفضل المهاجرين كافة على الانصار كافة ، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على الموالي »^(٣) « وفضل الاوس على الخزرج »^(٤) . وقد استدعى هذا المبدأ في العطاء تصنيف الناس على قبائلهم واصولهم فنشط النسابون لتدوين الأنساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها وبذلك تحددت معالم العدنانية واليمانية .

« ففي ديوان اعطيات الجند كان الجند اما عربا او عجماً . فالعرب مثلاً عدنان وقحطان ، فكانوا يقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فتقدم قريش لان النبوة منهم ، وقريش تجمع بني هاشم وبني امية وغيرهم فيقدم بنو هاشم لان النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ثم يليهم من اقرب الأنساب »^(٥) . وهكذا فقد كان لهذا التدوين اثره في رعاية القبائل

-
- ١ - الطبري : تاريخ مرسل المملوك : ج ٤ ص ٥٠٦ .
 - ٢ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٤٤ .
 - ٣ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٨ ص ١١١ .
 - ٤ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٧ « ثم انتهى الى الانصار فقالوا بمن نبدأ قال : « ابدؤا برهط سعد ابن معاذ من الاوس ثم الاقرب فالاقرب لسعد » .
 - ٥ - زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٧٠ .

بأنسابها وحرصها على تدوينها ، وهذا قد ادى من طريق غير مباشر إلى ظهور الروابط القبلية وبالتالي الى ظهور العصبية القبلية فيما بعد ، لأنه وضع حجر الأساس في تكوين الطبقات في المجتمع الاسلامي وأوجد نوعاً من الارستقراطية لدى قريش حيث يدفعها نسبها الكريم الى الإستعلاء والتباهي والاستئثار في كثير من المواقف .

وإذا كان التفضيل في العطاء قد خلق شعوراً بالإمتياز والتفرد لدى قريش فإن الشورى التي اقترحها عمر قد أثارت في نفوس الكثير من الاشخاص البارزين في قريش وفي نفوس انصارهم آنذاك مطامح سياسية . « فقد جعل عمر الشورى في ستة نفر من قريش »^(١) وكلهم مرشح للخلافة . « وقد نشأ بين افراد هذه الارستقراطية الاسلامية الحقيقية التي تتألف من الصحابة اخطر تنافس فقامت عند ذلك مشكلة الخلافة من جديد »^(٢) ذلك ان مركز الخلافة بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية وتدفق الاموال من ارجاء الدولة الاسلامية « اكادساً فلا يدري عمر ايعدها عدداً ام يكيلها كيلاً »^(٣) اصبح مأرباً يطمح اليه كل واحد من الصحابة فلا عجب بعد ذلك ان يختلف أهل الشورى وان يشتد بينهم النزاع ؛ إذ كل منهم يريد أن تكون الخلافة له ؛ فعمر بن الخطاب يخاطب اهل الشورى وهو على فراشه يجود بانفاسه : « اكلكم يطمع في الخلافة بعدي ! فوجموا ، فقال لهم ثانية ، فاجابه الزبير وقال : وما الذي يبعدنا عنها ! وليتها انت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ، ولا في السابقة ولا في القرابة »^(٤) .

وإذا بالمجتمع الاسلامي يجد نفسه غارقاً في فتنة التنافس والصراع على

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٢٨ . (قال عمر : عليكم هؤلاء الرهط الذي قال رسول الله (ﷺ) : « انهم من اهل الجنة » علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله (ﷺ) والزبير بن عوام حوارى رسول الله (ﷺ) وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله فليختاروا منهم رجلاً » .

٢ - فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٨ .

٣ - ابو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٥ .

٤ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٨٥ .

السلطة ، وكل فرد منه يفتش عمّا يدعم اتجاهه وميله وينبش اوراق النسب
والحسب القديمة مما ذهب ريحه مع القبيلة الجاهلية .

الباب الثالث

وضوح الرؤية الحزبية

الفصل الأول

الفتنة الكبرى وأبعادها الحزبية

تفاقم الخلاف في الإسلام وبرز بشكله الحاد مع الثورة على عثمان ضد فساد الحكم وظلمه . فالأحداث التي أدت الى مصرع الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ، فتحت أبواب الفتنة بين المسلمين على مصراعيها وأدت من ثم إلى وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي .

« فقد اختلف المسلمون في أمر عثمان لأشياء نقموها عليه ، حتى أقدم لاجلها ظالموه على قتله . ثم اختلفوا بعد قتله في قاتليه وخاذليه اختلافا باقيا الى يومنا هذا »^(١) وقد كان للفتنة أسباب كثيرة نشأت من عدة عوامل يمكن تقسيمها إلى ثلاثة :

١ - أسباب أخذها الناس على عثمان الخليفة الراشدي الثالث وطريقة

حكمه .

٢ - أسباب فرضتها ظروف الدولة وطبيعة التحول الاجتماعي في ذلك

العصر .

١ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤ .

٣ - نشاط الفئات السرية المعادية لخلافة عثمان .

فقد ظهر التنافس والصراع على السلطة بين اعضاء اهل الشورى حين ارادوا اختيار واحد منهم لمركز الخلافة : « فأقبلوا يتجادلون عليها (اي الخلافة) وكلهم بها ضنين وعليها حريص اما لدينا واما لآخرة »^(١) . « فقد تنافس القوم في الامر وكثر بينهم الكلام كل يرى أنه احق بالأمر »^(٢) . ولكن الواضح من المناقشات التي دارت بين اعضاء الشورى ان التنافس قد انحصر بين علي وعثمان ونرى هذا التنافس واضحاً ، « لما مات عمر واخرجت جنازته تصدى علي وعثمان : ايها يصلي عليه فقال عبد الرحمن : كلاكما يحب الامارة لستما من هذا في شيء ، هذا إلى صهيب »^(٣) .

فبعد وفاة عمر بن الخطاب ظهرت بوادر الانقسام بين أنصار علي وأنصار عثمان اثناء الشورى التي اقترحها عمر . « إذ قام عمار بن ياسر فقال : إن أردت الا يختلف الناس فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعاً واطعنا . فقام عبد الله بن ابي سرح وقال : إن أردت الا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن ابي ربيعة : صدق عبد الله ، إن بايعت عثمان قلنا سمعاً واطعنا »^(٤) . وهكذا فالتنافس على السلطة الذي كان بين علي وعثمان تعداهما الى انصار كل منهما ، وظهرت الحزبية في انقسام المسلمين الى امويين يناصرون عثمان وهاشميين او علويين يناصرون علياً .

وقد سيطر منطق السقيفة القبلي في الجدل الذي دار بين اعضاء الشورى والذي سبق البيعة لعثمان ، وبدا واضحاً أن قريشاً اعتبرت الخلافة مؤسسة من مؤسساتها ، وشأننا من شؤونها الخاصة ، ليس لأي من المسلمين ان يتقدم برأي فيها . فهذا رجل من بني مخزوم يقول لعمار بن ابي سرح : « وما انت وتأمير قريش

-
- ١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٥١ .
 - ٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٧ .
 - ٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٠ .
 - ٤ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

لأنفسها » وهذا عمار بن ابي سرح يقول : « إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان »^(١١) . ولكن الخلافة آلت الى عثمان وإلى استيلاء الأمويين على الحكم فيما بعد . وقد عبر علي عن نتيجة الشورى لمصلحة عثمان بقوله : « ان الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول : « ان ولي عليكم بني هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم »^(١٢) .

ومهما يكن من امر الشورى فان وصول عثمان بن عفان الى الخلافة قد حصل نتيجة تأثيرات سياسية وشخصية ، فهو من امية ، كما انه منصرف عن الدنيا لين الجانب ، وربما يكون الناس في ذلك الحين قد رغبوا في الانصراف عن الشدة والبطش والقوة ، « قال الزهري : ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً ، وانه لاحب الى قريش من عمر بن الخطاب ، لان عمر كان شديداً عليهم ، فلما وليهم عثمان لأن لهم ووصلهم »^(١٣) .

« لذلك فقد تخطى اصحاب الشورى الستة هم ايضاً علياً لانهم لم يشاءوا ان يعترفوا له بأنه ضاحك الحق الأول ، فانتخبوا الصحابي المسن عثمان بن عفان من بيت امية »^(١٤) .

وهناك من يرى ان اختيار اعضاء مجلس الشورى لعثمان لانهم « آثروا اختياره رغبة منهم في ان يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه بسهولة ويسر »^(١٥) .

وقد كان للشورى الاثر الكبير في نشوء الاحزاب القائمة على الولاء لاشخاص معينين لديهم اهداف شخصية في الوصول الى الحكم ، وهو ما عبر عنه

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٣ .

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٣٣ .

٣ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٦ .

٤ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٨ - ٣٩ .

٥ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١١٠ .

معاوية بن أبي سفيان حين بعث إلى زياد بن حصين يسأله : قال « اخبرني ما الذي شئت امر المسلمين وفرق اهواءهم وخالف بينهم . . . قال معاوية : انه لم يشت بين المسلمين ولا فرق اهواءهم ولا خالف بينهم الا الشورى التي جعلها عمر الى سته نفر . . . فلم يكن رجل منهم الا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعت الى ذلك نفسه ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف ابو بكر ما كان في ذلك اختلاف » (١) .

وكان اول ما عرض لعثمان في بدء خلافته قصة عبید الله بن عمر الذي قتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة . وقد عفا عثمان عن عبید الله وقال : « انا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها من مالي » (٢) . ففي هذا العفو يظهر التمييز بين المسلمين كعرب في معاملة الخليفة لعبید الله أو كعجم في معاملته للهرمزان . وهكذا فقد استمر العرب عامة والمهاجرون خاصة ، يتمتعون بامتيازات خاصة ويعاملون بصورة مختلفة عن سائر أفراد المجتمع الاسلامي ولا يخفى أن مثل هذا الأمر يعتبر مظهراً من مظاهر العصبية للعرب .

والأمر الذي كان يخشاه عمر ويجاهد للحيلولة دون وقوعه ، حدث منذ أن ولي عثمان الخلافة ؛ فلقد استأثرت قريش بالسلطة سواء فيما يتعلق بالخلافة العامة ام في ولاية أمور الناس في الأقاليم والإمارات . « فقد كان عمر بن الخطاب قد حاجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الآبأذن وأجل فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ؛ ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شعب الحرة ، اخذ بحلأقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار » (٣) . فقد اتبع عمر في معاملته لقريش سياسة شديدة ذلك أنه « لم يخف الفتنة من أحد كما خافها من قريش ولم يخف الفتنة على أحد كما خافها على قريش . وهو من اجل هذا أثر الاحتياط كل الاحتياط في

١ - ابن عدي ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨١ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٣٩ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٩٦ .

سياستها ، فلم يلن لها ولم يرفق بها ولم يخلّ بينها وبين طمعها الشديد وهمها البعيد واعتدادها بنفسها وازدراءها لغيرها من الناس «(١) .

أما عثمان فقد فتح باب الهجرة أمام أعلام قريش وسمح لهم أن يملكوا الضياع ويشيدوا القصور في الولايات الإسلامية المفتوحة كالعراق والشام ومصر ، كما سمح لهم أن يستبدلوا بأملاكهم في الحجاز أملاكاً في تلك الأمصار . «إن عثمان جمع أهل المدينة فقال : يا أهل المدينة ، ان الناس يتمخضون بالفتنة ، واني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم ذلك ، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيه فيقيم في بلاده ؟ فقام أولئك وقالوا : كيف ننقل لنا ما أفاء الله علينا من الأرضين يا أمير المؤمنين ؟ قال نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم ، فافترقوا وقد فرجها الله عنهم به «(٢) .

فقد خرج سادة قريش إلى الأقاليم النائية عن الحجاز وانشأوا لأنفسهم ارستقراطية دينية ، كان للمال وصحبة الرسول أثرهما في اجتماع الناس حولهم ومناصرتهم . ذلك أنه «لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار ، وانقطع اليهم الناس وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلي صاحبهم «(٣) .

وقد ذكرت المصادر الأمثلة على هذه الثروات الضخمة في ذلك الوقت . « ففي أيام عثمان اقتنى جماعة من أصحابه الضياع والدور ، منهم الزبير بن العوام فقد بنى داراً بالبصرة . . . تنزلها التجار وأرباب الاموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وابتنى ايضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية . . . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد والف أمة

١ - طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٧٦ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٠ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٩٨ .

وخططاً بالكوفة المشهورة من هذا الوقت المعروفة بالكناس بدار الطلحيتين وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية سراة أكثر مما ذكرنا ، وشيد دارة بالمدينة وبنها بالآجر والجص والساج . وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابنتي دارة ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً . وابنتي سعد بن أبي وقاص دارة بالعقيق فرفع شملها ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات . وقد ذكر سعيد بن المسيب إن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار . وابنتي المقداد دارة بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات وجعلها محصصة الظاهر والباطن . ومات يعلى بن أمية وخلف خمسمائة ألف دينار وديونا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار^(١) ويعلق المسعودي بعد ذلك بقوله : « وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال في أيامه ولم يكن مثل ذلك في عصر بن الخطاب » .

وقد ترتب على ذلك ما حذر منه عمر ، « فانه قد اجتمع إلى هذه الطبقة الأرستقراطية أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام ، والتصقوا بهم وتقربوا إليهم ، حتى اذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم ، فنبه بذلك ذكرهم ، والآ فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة ، وأهل الكوفة يريدون الزبير ، وأهل مصر يريدون علياً ؟ . . صحيح إن علياً لم ينجى مصر ، ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحماء وهو محمد بن أبي بكر لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر »^(٢) .

والى جانب هذه الطبقة الثرية من أعلام قريش وجدت طبقة أخرى فقيرة لم تملك ارضاً ولا مالاً وليس لها عطاءات ضخمة ، تلك هي طبقة الجنود المقاتلين

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٤ .

٢ - الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ٢ ص ٢٧ .

« وقد تكونت هذه الطبقة باستئثار عمال عثمان بالفيء والغنائم لأنفسهم وخزائن دولتهم وحرمان المقاتلة منها ، مدعين أن الفيء لله ، وليس للمحارب إلا اجر قليل يدفع اليه »^(١) . وذلك يخالف ما كان الجنود المقاتلون يحصلون عليه من الفيء والخراج في العهود السابقة ففي كتاب عمر بن الخطاب الى مسعد بن أبي وقاص حين افتتح العراق : «أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألك ان تقسم بينهم مغائهم وما أفاء الله عليهم فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجب الناس عليه به الى العسكر من كراع ومال فأقسمه بين من حضر من المسلمين وأترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء »^(٢) .

« فقد رأى عمر بن الخطاب في شأن قسمة الارضين التي افاء الله على المسلمين من ارض العراق والشام ان يحبس الارضين بعلوجها وان يضع عليهم في الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمقاتلة والذرية ولن يأتي بعدهم »^(٣) .

وهكذا فقد تكونت هذه الطبقة وحقدت على قريش واعتبرتها مغتصبة لحقوقها وتمت الخلاص من سيادتها وحكومتها . وتمضي الأيام ، والأحداث تزايد الهوة اتساعاً بين هاتين الطبقتين . فبينما تزداد الطبقة الارستقراطية الثرية ثراء وتسلطاً وتمعن في اللهو والبطالة تزداد الطبقة الأخرى فقراً واحساساً بهذا الفقر « فاول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى وسع الناس طيران الحمام والرمي على الجلاهيقات فاستعمل عليها عثمان رجلاً من بني ليث سنة ثمان فقصها وكسر الجلاهيقات وحدث في الناس النشو فأرسل عثمان طائفا يطوف عليهم بالعصا فمنعهم من ذلك ، ثم اشتد ذلك فأفشى الحدود »^(٤) .

١ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٥٨ .

٢ - بر يوسف : كتاب الخراج ص ٢٤ .

٣ - المصدر السابق ص ٢٥ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٩٨ . النشو = أول السكر .

وهكذا ظهرت الفوارق الطبقية في المجتمع الاسلامي التي كانت الدعوة الى المساواة أهم الاسس التي دعا إليها الاسلام ؛ وظهرت العصبية بتعصب العرب كافة على قريش حسداً لهم وحقداً عليهم لولاية الأمر واستبدادهم بالسلطة دون سائر الصحابة أو التابعين مع استئثارهم بالفيء . وقد ظهر السخط على استئثار قريش بالسلطة في الحادثة التي جرت في مجلس سعيد بن العاص والى الكوفة ؛ تلك الحادثة التي جرت في مجلس سعيد بن العاص حين كان « يسمر عنده وجوه اهل الكوفة منهم مالك بن كعب الأوجي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس الخفياں ومالك الأشتر . . . وغيرهم فقال سعيد : انما هذا السواد بستان قريش فقال الأشتر : اتزعم أن السواد الذي افاءه الله علينا بأسيفنا بستانك لك . ولقومك ؟ وتكلم القوم معه . . . واغلظ لهم القول عبد الرحمن الاسدي وكان على شرطة سعيد . . . » وتفاقم الأمر حتى قال سعيد : « والله لا يسمر عندي أحد ابداً فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيدا واجتمع اليهم الناس حتى كثروا فكتب سعيد و اشرف اهل الكوفة الى عثمان في اخراجهم . فكتب اليهم ان يلحقوهم بمعاوية » (١) ؛

وإذ بمعاوية يناظرهم في فضل قريش ، وتقدمها على سائر المسلمين ، فيقول : « انكم قوم من العرب ، ذو أسنان والسنة ، وقد ادركتم بالإسلام شرفاً غلبتم الأمم وحويتهم مواريتهم وقد بلغني انكم نقمتم قريشاً ونقمتم على الولاية فيها ، ولولا قريش لكنتم أذلة » (٢) ؛

فأنكر صعصعة بن صوحان على معاوية تفضيله قريشاً على سائر القبائل بقوله : « أما قريش فإنها لم تكن اكثر العرب ولا امنعها في الجاهلية وان غيرها من العرب لأكثر منها كان وامنع » ثم يعود معاوية إلى تذكير القوم بأحساب قريش

١ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ . ص ٧٠ .

٢ - المصدر السابق : ج ٣ . ص ٧٠ .

وانسابها » ولا اظنكم تفقهون أن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله تعالى ، لم تكن باكثر العرب ولا اشدهم ، ولكنهم كانوا اكرمهم احساباً واحضهم انساباً^(١) . فلما انكروا عليه ذلك نفاهم الى الجزيرة وكان عليها من قبل معاوية عبد الرحمن بن خالد المخزومي ، فأذلهم وأظهر لهم سيادة قريش بامتهانه لهم وتحقيره لشأنهم وحطه من مقامهم : « لما رجع معاوية المسيرين قالوا : ان العراق والشام ليسا لنا بدار ، فعليكم بالجزيرة فاتوها اختياراً فغدا عليهم عبد الرحمن بن خالد فسامهم الشدة فضرعوا له وتابعوه »^(٢) .

» وهكذا وقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل منذ ذلك الحين ، وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ، ومنهم الأنصار ، وثبت الانصار في نصره اهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في الاسلام^(٣) .

كذلك فإن العودة إلى التفاخر بالأنساب قد عادت للظهور على الساحة من جديد فنرى الخليفة عثمان يبرزها في مجال الأحساب والأنساب كما كانت في الجاهلية عندما يخاطب عمر وبن العاص لما عزله عن ولاية مصر فيقول له : « وانا والله لو اخذتك بما آخذك به عمر لاستقيمت ، ولكني لنت عليك فاجترأت علي ، اما والله لأننا اعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان . فقال عمرو : دع عنك هذا ، فالحمد لله الذي اكرمنا بمحمد (ﷺ) وهدانا به فقد رأيت العاصي بن وائل ورأيت اباك عفان فوالله للعاص كان اشرف من ابيك قال فانكسر عثمان وقال : مالنا ولذكر الجاهلية »^(٤) .

ولم تكن العصبية لقريش هي وحدها التي ظهرت في المجتمع الاسلامي زمن عثمان ، فالمسلمون ادركوا بعد وقت قصير ، انهم حين بايعوا عثمان قد سلموا

١ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٠ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٠ .

٣ - زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي مجلد ٢ ص ٣٣٨ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٥٦ .

السلطان الفعلي على المسلمين إلى اله وذوي قرابته من بني أمية وآل أبي معيط . فعمرو وابو بكر كانا قرشيين كعثمان ، ولكن عثمان كان أموياً وفي أمية دون غيرها من البطون كانت عصبية قريش . وابن خلدون يشدد على هذه الناحية فيقول : « ان عصبية مضر كانت في قريش ، وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف انما كانت في بني أمية ، تعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس »^(١) فقد اتضح أن الأمويين كانوا المحرك الأساسي لأمر الخلافة في عهد عثمان ولئن حالت شخصية عمر القوية وسياسته الحازمة دون ظهور آثار العصبية في عصره فان شخصية عثمان المستضعفة واخطائه السياسية قد فسحتا المجال لظهور هذه العصبية واشتداد امرها في اواخر عهده . فخلافة عثمان بن عفان وهو من الأمويين قد اتخذت لونا من العصبية القائمة بين الهاشميين والأمويين . فقد اتخذ الأمويون من حلم عثمان وقرابته وسيلة لتحقيق مآربهم ، واخذوا يحبون نفوذهم القديم هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن عليا كان ينتظر ان تكون له الخلافة قبل عثمان^(٢) فانتاء عثمان الى البيت الأموي ، جعل بني هاشم يقفون له بالمرصاد يتبعون خطواته ويعدون عليه انفاسه لما بين البيتين من عدااء قديم يرجع الى ايام الجاهلية حين كان بنو هاشم في منزلة أدنى من منزلة آل أمية وفي وضع مادي واجتماعي لا يداني وضع ابناء عمومته الأمويين^(٣) . ولكن نزول الاسلام على رجل من بين هاشم جعلهم يشعرون بالزهو والفخر بنعمة الله . وعندما جاء عثمان ليعيد التسلط الأموي القديم ويسلم اهله وجماعته مقاليد الأمور من جديد ، ثارت ثائرة بني هاشم ، وعادت العصبية لتظهر من جديد بين الأسرتين . وهذه العصبية من نوع آخر فهي لم تكن لقبيلة من القبائل ولكنها كانت عصبية للأسرة ، ذلك أن بني هاشم وبني أمية كلاهما من قريش .

لقد « كان عثمان في رأي الهاشميين ظاهرة أموية تسترد مجدهم القديم وتنافس فيه آل الرسول الأذنين . فلما تولى عثمان وصل الأمويون إلى الخلافة بالفعل ، لأن

١ - ابن خلدون : المقدمة ص ٣٨٢ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ . ص ٢١٨ .

(كان عليا « لا يشك ان الأمر يصير إليه ») .

٣ - المصدر السابق : ج ٢ . ص ٢٥٣ .

رياسة عثمان كانت رياسة بيته «^(١)» « فان عثمان لما ولي كره ولايته نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) لان عثمان كان يحب قومه ، فولي الناس اثنتي عشرة سنة وكان كثيراً ما يولي بني امية ممن لم يكن له من رسول الله صحبة »^(٢) .

فعثمان لم يعمل بنصيحة عمر بن الخطاب حين طعن « انشدك الله يا عثمان ان وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بني ابي معيط على رقاب الناس »^(٣) ويكفي ان نقارن بين الأنساب القبلية لولاة الأقاليم على عهد عمر وأنسابهم على عهد عثمان لنرى مدى ما بلغته قريش عامة وأمية خاصة في الانفراد بالسلطات والسلطان في عهد الخليفة الراشدي الثالث .

ففي عهد عمر « كان على مكة نافع بن الحارث الخزاعي (وهو ليس من قريش) وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي ، وعلى صنعاء يعلى بن منية حليف بني نوفل ابن عبد مناف ، وعلى الجند عبد الله بن ابي ربيعة (وهو قريشي من مخزوم) وعلى الكوفة المغيرة من شعبه (وهو ثقفي) وعلى البصرة ابو موسى الاشعري (وهو يمني) وعلى مصر عمرو بن العاص (وهو قريشي من بني سهم) وعلى حمص عمر بن سعد (وهو انصاري) وعلى دمشق معاوية بن ابي سفيان (وهو قريشي من بني امية ، وعلى البحرين ومن والها عثمان بن ابي العاص الثقفي »^(٤) .

فغالبية هؤلاء العمال ليسوا من قريش وان كان فيهم بعض من ثقيف وهم شركاء قريش في الجاهلية ولكن ليس فيهم واحد من عدي رهط عمر .

وقد كان اختيار عمر لعماله من العرب الذين حسن أسلامهم وثبتت له كفايتهم ، وكان يراقبهم . فقد كان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم

١ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٩ .

٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٧ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٩٢ .

٤ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٢٤١ .

فيقول : « اني لم استعملكم على امة محمد (ﷺ) على اشعارهم . ولا على ابشارهم ، انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، تقسموا بينهم بالعدل وكان يقتص من عماله ، واذا شكى اليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه امر يجب اخذه به ، اخذه به »^(١) وهكذا فان سياسة عمر الشديدة في مراقبة عماله لم تفسح لهم المجال ان يستبدوا او يكونوا لانفسهم عصيات في الولايات التي حكموها .

أما في عهد عثمان فقد تغير الحال ولم ينقض وقت طويل على توليه الخلافة حتى حدثت تغيرات لصالح قريش والأمويين بالذات بالرغم من ان عمر « كان قد أوصى أن تظل الولايات دون تغيير في اشخاص ولائها عاماً من خلافة الخليفة الجديد »^(٢) فمعاوية بن ابي سفيان وهو من بني امية بعد ان كان في عهد عمر واليا على « دمشق والأردن . . . ضمت اليه حمص وقنسرين وفلسطين . . . فاجتمع الشام على معاوية لستين من امارة عثمان »^(٣) .

كذلك « فقد عزل عثمان سعد بن ابي قاص عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة ابن ابي معيط ، وهو صحابي اخو عثمان لأمه - وذلك اول ما نقم عليه لانه آثر اقاربه بالولايات »^(٤) وهكذا خضعت ولاية الكوفة للأمويين ايضاً ، وانتقلت هذه الولاية بعد « عزل الوليد الى سعيد بن العاص بن امية وكان سعيد قد ربي في حجة عثمان . حتى قال بعض شعراء الكوفة .

فررت من الوليد الى سبيــــــــــــد	كأهل الحجر اذ جزعوا فــــــــــــاروا
يلينا من قريش كل عــــــــــــام	امير يحدث او مستشــــــــــــار «
لنا نار نخوفها فنخشــــــــــــى	وليس لهم فلا يخشون نــــــــــــار» ^(٥)

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٠٤
 - ٢ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤١ .
 - ٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٩
 - ٤ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٤ - ١٥٥ .
 - ٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٣ .

وفي هذه الابيات تعبير صادق عما في نفوس اهل الكوفة من استياء وحقد على
ريش لتسلطها واستبدادها بالأمر .

والمصادر تذكر ان السبب المباشر لعزل الوليد بن عقبة هو شرب الخمر^(١)
ولكن عزله اسبابا اخرى « وهي تتصل بسياسة عثمان العامة لأهل الكوفة وسيرته
فيهم فقد كان معظم اهل الكوفة من اليمانية ولم تكن المضرة فيهم إلا قلة ، وكان
الوليد رجلاً قرشياً معنداً بقرشيته وبمكانه من عثمان ، فما استبعد ان هذه الكثرة
اليمانية قد ضاقت بهذا الامير القرشي المضري فتكروا له »^(٢) .

على أن عملية عزل الوليد لم تغير شيئاً من الاتجاه انساني لأنه استبدل برجل
من بني ابي

وفي ولاية مصر « عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراجها واستعمل عبد
الله بن سعد بن ابي سرح »^(٣) « وكان حالعثمان من الرضاة »^(٤) .

كذلك « ففي سنة تسع وعشرين للهجرة عزل عثمان ابا موسى الاشعري عن
البصرة واستعمل عبد الله بن عامر بن كريز ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو
ابن خال عثمان »^(٥) .

وهكذا فالولايات الكبرى في الدولة الإسلامية عهد عثمان كان يسيطر عليها
امويون او قرشيون ، ففي الشام كان معاوية بن ابي سفيان الاموي وفي الكوفة كان
الوليد بن عقبة وبعده سعيد بن العاص من امية . وفي مصر عمرو بن العاص وبعده
عبد الله بن سعد بن ابي سرح وقد اقر عثمان ابا موسى الاشعري ثلاث سنين على

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٤١ - ٢٥٢ .

٢ - طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٩٣ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٥٣ « وهو رجل كان رسول الله اباح دمه ونزل القرآن
بكفره : القرآن الكريم : سورة الانعام آية ٩٣ « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً او قال اوحي
الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله » .

٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥ .

٥ - المصدر السابق : ج ٣ ص ٤٩ .

البصرة وهكذا » لم يبق إلا مصر واحد من الأمصار الكبرى لم يل امره أموي ولا قرشي وإنما وليه رجل من أهل اليمن ، فكان مركز أبي موسى غريباً شاذاً ، فهو اليمني الوحيد الذي يلي مصر كبيراً . وقد تنبّهت لذلك قريش وقرابة عثمان «^(١) .

وفي هذا الصدد يقول « غيلان بن خرشه لعثمان بن عفان : أما منكم خسيس فترفعوه أما منكم فقير فتجروه ! يا معشر قريش ، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد ! فانتبه لها الشيخ فولأها عبد الله بن عامر «^(٢) .

وهكذا فإن عثمان أسند إلى آل وذويه الولايات الكبرى في الدولة الإسلامية وهي الشام ومصر والكوفة والبصرة ، وكانت هذه الولايات الأربع مصدر ثراء المسلمين ومصدر قوته المالية . فمع أن هؤلاء الولاة جميعاً من قرابة عثمان ولم يكن سلوكهم الديني أو الإداري في أمصارهم ومع رعيّتهم مرضياً ومقبولاً فقد كانوا جميعاً من قريش وأكثرهم من بني أمية ، وكانوا في تصرفاتهم لا يخفون ميلهم لقبيلتهم وتعصبهم لقريش على غيرها من قبائل العرب . ولم يكن عثمان يعاملهم بالشدة التي اتصف بها عمر ، لذلك فقد ظهر تعصب الولاة وجورهم ؛ ففي مصر قسا عبد الله بن سعد في جباية الخراج فظلم ، ثم أظهر من العصبيّة لقريش مما أثار غير قريش من العرب والمسلمين ودفعهم إلى أن يشكوه إلى عثمان ، وذكروا له ما صنع بمصر وتحامله على المسلمين وأهل الذمة واستثاره في غنائم المسلمين «^(٣) .

فسياسة عثمان بن عفان في الأمور السياسية والإدارية والمالية أثارت عليه وعلى عهده موجة من السخط بين المسلمين عامة وبين بقية أعضاء مجلس الشورى الخمسة خاصة . على أن أعضاء مجلس الشورى وهم :

علي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن الزبير والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص الذين وجدوا أن ارتفاع شأن بني أمية يهدد مكانتهم

١ - طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان بن عفان) مجلد ٤ ص ٢٨٥ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٦٦ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٧٤ .

ونفوذهم . ولم يكن الطموح السياسي وحده السبب في معارضة هؤلاء الصحابة لتصرفات عثمان بل كانوا حريصين على العمل باحكام الدين ، والتمسك بالخير والحق كذلك فسائر المسلمين استأوا من تصرفات عثمان وعماله وولاته ونقموا عليهم لما رأوه من عصبية أموية وقرشية على أيديهم . كذلك فان عثمان « اتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً له في المدينة وترك له الأمر فملأ مروان كل مناصب الولاية باهل قرابته »^(١) وبذلك أصبحت المراكز الادارية في الدولة تحت سيطرة بني امية .

والى جانب هذه الاسباب التي ادت الى قيام حركة استياء في صفوف المسلمين ضد الحكم المتمثل في عثمان واسرته فالمصادر تذكر العديد من الامور التي أخذها الناس على عثمان فمنها « انه آوى طريد رسول الله الحكم بن العاص ولم يؤوه ابو بكر ولا عمر ، واعطاه مائة درهم ، وسير عامر بن عبد القيس من البصرة الى الشام ، وطلب منه عبيد الله بن خالد بن اسيد صلة فاعطاه اربعمائة الف درهم . وتصدق رسول الله (ﷺ) بمهزور - موضع سوق المدينة - على المسلمين فاقطعها الحارث بن الحكم اخا مروان - واقطع فذك مروان وهي صدقة لرسول الله (ﷺ) وافتتح افريقية واخذ خمسة فوهبه لمروان »^(٢) ففي مجمل هذه الامور نرى ان اثار عثمان اهله بالمال وتفضيله لهم كان الدافع الاساسي والاهم لنقمة الناس عليه ..

والى جانب هذه الاسباب فالطبري يذكر اموراً أخرى عابها الناس على عثمان وحاوروه في امرها ، حيث حاول تبرير قيامه بها فمن هذه الامور انه اتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم ، وانه حمى الحمى ، وإن القرآن كان كتباً فتركها الا واحداً وانه استعمل الاحداث في وولاته امور المسلمين وهم لا يصلحون لها ولا يتقرون عليها وانه اعطى ابن ابي سرح ما افاء الله عليه ، وانه احب اهل بيته واعطاهم اموالاً كثيرة ، وانه اعطى الارض رجلاً وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار ايام افتتحت^(٣) .

١ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤٠ .

٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٣ .

٣ - لطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ .

وقد ظهر التبرم اول ما ظهر من سياسة عثمان في المدينة فحاول كبار الصحابة في بادىء الامر ان يبعدوا بينه وبين حاشيته وخاطبوه في الامر . فعلي خاطب عثمان في امر استعمال اقاربه وفساد هؤلاء الاقارب وتصرفهم بالامر دونه وضرب مثلاً على ذلك معاوية فاجابه عثمان « هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته . فقال علي : انشدك الله هل تعلم ان معاوية كان اخوف من عمر من يرفاً غلام عمر منه ؟ قال : نعم . قال علي : فان معاوية يقطع الامور دونك وانت تعلمها ، فيقول للناس هذا امر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية » (١) .

ويبدو ان عثمان كان يعرف خشية الناس لعمر وبأسه حتى انه قال مرة يخاطب الناس الذين عابوا افعاله وذكره بآبن الخطاب وطريقته في سياسة الدولة « الا فقد والله عبتم علي بما اقرتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما احببتم او كرهتم ، ولنت لكم ، واوطأت لكم كتفي ، وكففت يدي ولساني عنكم فأجترأتم علي » (٢) .

وعاتبه عبد الرحمن بن عوف وقال له : « انما قدمتك على ان تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر فخالفتهم ، وحاييت اهل بيتك ، واوطأتهم رقاب المسلمين . فقال عثمان : ان عمر كان يقطع قرابته في الله وانا اصل قرابتي في الله . قال عبد الرحمن : لله علي ان لا أكلمك ابداً ، فلم يكلمه ابداً حتى مات . ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه فتحول عنه الى الحائط ولم يكلمه » (٣) .

وعارض سياسة عثمان في المال والادارة عبد الله بن مسعود « فضربه حتى كسر اضلاعه » (٤) . وعارضه ابوذر الغفاري فنفاه الى الشام فلم يكف عن المعارضة بل امدته اساليب معاوية في حكم الناس عادة جديدة فاخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الاموال العامة « قام ابوذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الاغنياء ، واسوأ

١٠ - الخطيري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٨ .

٢٠ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٣٨ .

٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٠ .

٤ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٩٩ .

الفقراء . بشر للذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الاغنياء ، وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس «^(١) وينتهي به الامر الى الربذة .

وقد تدمر ذوو هؤلاء الصحابة لما يتعرض له ذووهم . فقد ذكر السيوطي « انه كان من عثمان هناة الى عبد الله بن مسعود وابي ذر وعمار بن ياسر ، فكانت بنو هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها ، كانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان لحال عمار بن ياسر »^(٢) .

والى جانب الصحابة نقم الانصار على سياسة عثمان ، لانهم حرموا من الولايات بعد ان وعدوا بان يكونوا شركاء في الحكم ولم ينس الانصار ما كان لهم من الفضل في وصول قريش الى السلطة ، فإذا بهم يستبعدون ويحرمون من المكاسب التي استأثرت بها قريش عامة والامويون خاصة .

ولم تظهر النقمة على عثمان في المدينة فحسب بل ظهرت ايضا في الامصار اي في المدن التي يسكنها العرب والذين قد هاجروا اليها واستقروا فيها كالبصرة والكوفة ومصر^(٣) . وكان لهذه الهجرات والاستيطان من قبائل العرب في الامصار المحدثه والاقطار المفتوحة اثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية والمجتمع القبلي خاصة . ومن ابرز هذه الاثار انتقال مراكز الاحتكاك القبلي من ربوع الجزيرة الى المواطن الجديدة ولا سيما العراق والشام وخراسان . وكان للأسلوب القبلي في تخطيط الامصار اكبر الاثر في احتدام العصبية ونشوب الفتن القبلية فيها ، اذ ان جمع طائفة من القبائل تأصلت في نفوسها روح العداء القبلي منذ اقدم العصور في بلد واحد كان امراً غاية في الخطورة فقد حملت هذه القبائل معها الى مواطنها الجديدة

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨٣ .

٢ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ وابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨٧ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٥ « وكان اهل مصر كاتبوا اتباعهم من اهل الكوفة واهل البصرة وجميع من اجابهم ان يثوروا خلاف امرائهم » .

خصوماتها القبلية القديمة وعداواتها المتوارثة وذكريات الايام والوقائع . فالقبايل التي نزلت الكوفة كانت خليطاً من اليمينية والنزارية . « فانزل في ودعة الصحن سليماً وثقيفاً مما يلي الصحن على طريقين ، وهمدان على طريق ، وبجيلة على طريق آخر ، وتيم اللات على آخرهم وتغلب ، وانزل في قبلة الصحن بني اسد على طريق ، وبين بني اسد والنخع طريق ، وبين النخع وكندة طريق ، وبين كندة والازد طريق ، وانزل في شرقي الصحن الانصار ، وزينة على طريق ، وتيماً ومحارباً على طريق ، واسداً وعامراً على طريق - وانزل في غربي الصحن بجالة وبجيلة على طريق ، وجديلة واخلاطاً على طريق ، وجهينه واخلاطاً على طريق »^(١) ، وهكذا فقد اشتملت الكوفة على عدد كبير من القبائل ذات العصبية المتعددة . « ففي الكوفة كان اليمينيون اثني عشر ألفاً وكانت نزار ثمانية آلاف وكانت هذه العصبية مثاراً للنزاع الشديد »^(٢) وقد تحولت هذه العصبية القبلية الى عصبية للمدينة التي سكنها العرب . وهكذا نشأ ظرف طارئ جديد لم يسبق له وجود زمن الخلفاء السابقين وهو نشوء عصبية اقليمية .

وبالى ذلك يشير ابن خلدون بقوله : « وقد كان وقع في صدر الاسلام الانحاء الى المواطن فيقال جند قنشرين ، جند دمشق ، جند العواصم ، وانتقل ذلك الى الاندلس ، ولم يكن لا طراح العرب أمر النسب ، وانما كان لاختصاصهم بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند امرائهم »^(٣) ونتيجة لهذه العصبية الجديدة اخذ رجال القبائل الذين نزحوا عن الجزيرة واستقروا في المدن الجديدة او الجواضر المفتوحة يشعرون بنوع من الاقليمية تشدهم الى مواطنهم الجديدة ، وبدأوا ينظرون بزهو وفخر اليها ويوطدون روابط مصالحهم بمصالح هذه المواطن . وهذا النوع الجديد من العصبية التي تمتزج فيه القبلية بالاقليمية ينطبق على القبائل التي اقامت في الكوفة كما ينطبق على القبائل التي

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥ .

٢ - البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

٣ - ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

اقامت في الشام .

وقد صادف انه في هذه الفترة التي كانت تنمو فيها هذه الاقليمية وتتمكن في نفوس افراد القبائل ، توقفت موجة الفتوح فزاد هذا الحال في التباعد بين المدينة وبين الأقاليم . ولخص فلها وزن الحالة الجديدة التي نشأت في الأمصار زمن عثمان بقوله : «الظروف بعد ان توقفت حروب الفتوحات الكبرى قد تغيرت . . فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجري كله مع بقية انواع دخل الدولة الى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطي المحاربين العرب من ذلك سوى اعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش واستطاعت بفضل الفتوحات التي تمت على يده ان تستقل وتتخلص من سلطانه . . . فنزل الجيش الى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق اعطيات كانت الدولة تستطيع ان تمنعها ايضاً . . . فلا عجب ان يعتقد المقاتلة ان الدولة قد غلبتهم على حقوقهم وحرمتهم من اموالهم واخذتها لنفسها وانها تستند الى الخزانة فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا ان المال الذي يجتمع من الخراج انما هو لهم وليس للدولة . وقالوا انه مال المسلمين وليس مال الله ، وتمسكوا بدعوى أن أموال الفتيء يجب أن تقسم . وفي بعض الأحيان نهبوا بيوت المال في الأمصار ^(١) وهكذا فان قريشاً وعلى رأسها الخليفة الراشدي الثالث لم تستطع ان تواجه هذه التحركات القبلية نظراً للخلافات والمطامع السياسية التي كانت تحرك مختلف الفئات القرشية وتقضي عليها .

كذلك قد دخل في المجتمع الاسلامي عنصر جديد كان له دور كبير في الثورة على عثمان وهم الأعراب . فقد اضطر عثمان الى تجنيد عدد كبير منهم وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخمس ^(٢) وفيهم قال الله تعالى « الاعراب اشد كفراً

١ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤١ - ٤٢ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٧٠ .

ونفاقاً واجدر الآ يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم»^(١)
فهؤلاء الأعراب لم يدخل الإيمان قلوبهم ، وقد ذهبوا الى القتال ومعظمهم يبغى
عرض الحياة الدنيا فشكّلوا طبقة خاصة يمكن ان تسمى الرعاع وقد سهل على
المستغلين توجيههم في طريق الفتنة - فسعيد بن العاص يصف اهل الكوفة زمن
عثمان فيقول : « ان اهل الكوفة قد اضطرب امرهم ، وغلب اهل الشرف منهم
والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردت واعراب
لحقت ، حتى ما ينظر الى ذي شرف ولا بلاد من نازلتها ولا نابتتها »^(٢) .

وهكذا فقد اجتمع على بغض عثمان والكيد له اهل الأمصار ووجوه اهل
المدينة وكبار الصحابة من مهاجرين وانصار ، هذا فضلاً عن رجال الجيش وخاصة
الاعراب . فهؤلاء جميعاً شكّلوا اتجاهاً حزبياً معارضاً للسلطة المتمثلة في عثمان
وعماله وآله من بني امية . فقد جمعهم الهدف الواحد المتمثل في معارضة سيطرة بني
امية على شؤون الخلافة .

والملاحظ ان الثورة على عثمان قد انطلقت من الأمصار بالرغم من « ان عليا
وطلمحة والزبير كانوا على رأس الناقمين على عثمان ، ولكنهم لم يشاؤا ان يستعينوا
بأهل المدينة ويحاربوه هم انفسهم حرباً سافرة تحت سمعه وبصره ، بل هم آثروا ان
تكون الثورة في الأمصار حيث تتركز القوة الحربية والمالية للدولة . أما المدينة فلم
يكن تركز فيها سوى السلطة الأدبية للإسلام »^(٣) .

ومن الاسباب التي ساعدت على قيام الفتنة هو نشاط الفئات السرية المعادية
للخليفة الراشدي الثالث . فقد وجد بنو هاشم داعية جريئاً في شخص عبد الله بن
سبأ الملقب بابن السوداء والذي تزعم المصادر « انه كان يهودياً من اهل صنعاء ، امه

١ - القرآن الكريم : سورة التوبة اية ٩٧ كذلك ففي سورة الحجرات اية ١٤ يقول الله تعالى : « قالت
الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله
لا يلتكم من اعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم » .

٢ - الطبري : تاريخ الزسل الملوك ج ٤ ص ٢٧٩ .

٣ - فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٤٢ .

سوداء ، فاسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام ، فاخرجوه حتى اتى مصر فاعتمر فيهم ^(١) « وقد كان عبد الله بن سبأ » اول من شهر القول بفرض امامة علي عليه السلام واطهر البراءة من اعدائه وكاشف مخالفه ^(٢) .

فقد قام ابن سبأ واخذ يدعو الناس في مصر ، حول احقية علي بالخلافة ويؤلبهم على عثمان فيقول : « ان عثمان اخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله (ﷺ) ، فانفضوا في هذا الامر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم ، واطهروا الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم الى هذا الامر . فبث دعائه ، وكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه ، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، واطهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها في عيوب ولائهم ، ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ^(٣) » واخذت دعوة ابن سبأ بالانتشار سراً في الامصار .

وهكذا فقد تضافرت العوامل العديدة في تأجيج الثورة على الخليفة الراشدي الثالث وكانت العوامل الأساسية فيها تتصل بثلاث طبقات : طبقة ارستقراطية دينية كونتها السقيفة بما بعثت من مركز قريش غدت بالإضافة الى ارستقراطيتها الدينية تتمتع بثروات طائلة بسبب سياسة عثمان في المال والارض والهجرة ادت بالتالي الى ظهور فكرة العصبية من جديد للامويين خاصة ولقريش عامة ، وقد تسلطت هذه الطبقة على سائر المسلمين ، كذلك فان كثيراً من افراد هذه الطبقة طمحو للوصول الى الحكم مما دفعهم الى استغلال كل الظروف المواتية للوصول الى هذا الهدف .

ثم طبقة المحاربين والمسلمين الجدد المحرومة من كافة الامتيازات والتي كانت

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤٠ .
٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠ .
٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٤١ .

اسباب تدميرها متوافرة . فقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة ، اما دوافعها فهي تصرفات عثمان وولاته وآل بيته ، واما الذي غذاها ، فهم اصحاب المصلحة فيها ، من الزعماء الذين اوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم ، ومن المال والمنزلة الدينية ما مكنهم من جمع الأنصار حولهم ، ومن سوء الأوضاع الاجتماعية ما سهل عليهم تنفيذ ما رغبوا فيه . وهؤلاء هم الذين شكلوا الطبقة الثالثة للثورة .

وقد نتج عن هذه الظروف والاحداث السيئة حركة عامة ، سلك عثمان وآله من الأمويين والمنتفعين تجاهها سلوكا بعيدا عن الحكمة والعدل . فبدلاً من ان تجاب مطالب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم وجوبها بسياسة قاسية هي السياسة التي اسفر عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الأمصار . فقد « جمع عثمان امراء الاجناد : معاوية بن ابي سفيان ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، وعبد الله بن سعد بن ابي سرح ، وعمرو بن العاص فقال : اشيروا علي ، فان الناس قد تنمروا لي فقال له معاوية : اشير عليك ان تأمر امراء اخبارك فيكيفك كل رجل منهم ما قبله ، واكيفك انا اهل الشام ، فقال له عبد الله بن عامر : ارى لك ان تجمرهم في هذه البعوث حتى ييم كل رجل منهم دبر دابته وتشغلهم عن الارجاف بك ، فقال عبد الله بن سعد : اشير عليك ان تنظر ما اسخطهم فترصيهم ، ثم تخرج لهم هذا المال فيقسم بينهم »^(١) وانتهى المؤتمر بأن « رد عثمان عماله الى اعمالهم وامرهم بالتضييق على من قبلهم ، وامرهم بتجمير الناس في البعوث ، وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه »^(٢) .

ولكن هذه الاجراءات زادت نار المقاومة ، فقد رأى هؤلاء الثوار انهم خدعوا فلما كان في شوال سنة خمس وثلاثين خرج اهل مصر . . . وخرج اهل الكوفة . . . وخرج اهل البصرة^(٣) وذلك لارغام عثمان على تغيير بطانته وتبديل عماله الذين

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٣٤ وابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣٥ .

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٣٥ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٣٤٩ وابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٤٠ .

التصرف ولتغيير سياسته المالية نحوهم » نريد ألا يأخذ اهل المدينة عطاء ، فانما هذا المال لمن قاتل عليه وهؤلاء الشيوخ من اصحاب رسول الله (ﷺ) «^(١) .

ولكن الامر يسوء حين يعثر الثوار على صحيفة مرسله مع غلام عثمان « يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس ، وعمرو بن الحمق ، وعروة بن البياح وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم »^(٢) وهؤلاء كانوا زعماء الثوار المصريين وتؤكد المراجع انه لم يكن للخليفة عثمان علم بهذه الصحيفة وانما كانت من عمل مروان بن الحكم^(٣) وكان من نتائج هذا الامر ان حوصر عثمان اربعين يوماً ثم قتل^(٤) .

وقد كان مقتل عثمان بن عفان من اخطر الاحداث في التاريخ الاسلامي فقد حصل الخلاف الذي به انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم واصبحوا فرقاً واحزاباً ، حاول كل فريق ان يفرض سلطانه السياسي بقوة السيف ، وهكذا سار المسلمون في اتجاهين حزبيين أساسيين : احدهما مناصر للخليفة المقتول والآخر معاد له .

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٥٥ .
 ٢ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٨٥ .
 ٣ - مصدر السابق : ج ٣ ص ٨٥ .
 ٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٣٧١ - ٣٧٥ .

الفصل الثاني

معركة صفين ونشأة الاحزاب السياسية

قام الخلاف بين المسلمين منذ مقتل الخليفة الراشدي الثالث اوفتنة عثمان ، اذ ان اضافة هذه الفتنة إلى عثمان باعتبار مقتله نقطة البدء في اختلاف المسلمين فمنذ ذلك الحين انصدعت وحدة المسلمين وتفرقت كلمتهم واصبحوا فرقاً واحزاباً يكفر بعضهم بعضاً وتحول الصراع على السلطة الى صراع دموي حار ، وانقسم المسلمون إلى حزبين يعمل كل منهما سلاحه في الآخر . ذلك ان المسلمين اختلفوا في مقتله « فأما أهل السنة والاستقامة فانهم قالوا : كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً . وقال قائلون بخلاف ذلك »^(١) وهكذا افرق المسلمون بين مطالب بدمه وبين ثائر عليه . وقد كان الوضع السياسي آنذاك شديد الخطورة . فقد خشي المسلمون ان يعود الثائرون إلى أمصارهم بعد مقتل الخليفة عثمان دون أن يكونوا قد اختاروا خليفة له ، فهم لا يأمنون اختلاف الناس وفساد الامة^(٢) .

لذلك فقد جاء الناس الى علي يطلبون منه أن يلي الحكم ، وذلك ان عليا كان في ذلك الحين من اكثر الاشخاص المؤهلين لتولي امور الخلافة والناس يعرفون حقه في الأمر فيقولون له : « ولا نجد اليوم أحداً احق بهذا الأمر منك ولا أقدم سابقة ولا

١ - الأشعرى ، مقالات ، سلاميين ج ١ ص ٤٩ .
٢ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٣ .

أقرب من رسول الله ﷺ» (١) .

ولكن علياً يمتنع عن الاستجابة الفورية لطلب الصحابة والمسلمين نظراً لدقة الموقف وصعوبة الأوضاع ، لذلك فهو يقول لهم : « دعوني والتمسوا غيري ، فانا مستقبلون امرأته وجوه والوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول » (٢) ولكنه بعد الحاح المسلمين عليه رضخ للأمر . على ان المصادر تختلف في مدى الاجماع على بيعه علي بن ابي طالب فمنهم من يذكرانه « لما قتل عثمان ، بايع الناس علياً ، فسموا بالجماعة » (٣) .

اما الاشعري فهو يرى انه « لما بويع علي بن ابي طالب رضوان الله عليه ، اختلف الناس في امره ، فمن منكر لإمامته ، ومن بين قاعد عنه ، ومن بين قائل بإمامته منعقد لخلافته » (٤) .

ولكن المرجح ان فريقاً من المسلمين خاصة نعر من بني امية وكانوا شديدي الصلة بالخليفة عثمان لم يبايعوا علياً بل آثروا الخروج من المدينة « لما كان يوم الخميس على رأس خمسة ايام من مقتل عثمان رضي الله عنه جمعوا اهل المدينة . . . ووجدوا بني امية قد هربوا الا من لم يطق الهرب ، وهرب الوليد وسعيد الى مكة في اول من خرج وتبعهم مروان وتتابع على ذلك من تتابع » (٥) .

كذلك فهناك نفر يسير من الأنصار لم يبايع علياً كما ذكر الطبري « بالرغم من كونهم عثمانيه اضافة الى قوم هربوا من المدينة الى الشام ولم يبايعوا علياً » (٦) . كذلك « فأهل مصر افترقوا فرقاً ، فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه ،

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٧

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٤ .

٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٤ والسيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ « بويع علي بالخلافة الغد من قتل عثمان بالمدينة ، فبايعه جميع من كان بها من الصحابة رضي الله عنهم » .

٤ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٥٤ .

٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٣ .

٦ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٠ .

وفرقة وقفت واعتزلت وفرقة قالوا : نحن مع علي ما لم يُعَدَّ اخواننا ، وهم في ذلك مع الجماعة « (١) .

وهكذا فمنذ بداية عهد الخليفة الرابع ، وجدت فئات معارضة لخلافته ، وكان عليه ان يواجه ظروفاً سياسية واجتماعية شديدة التعقيد ، نظراً لما أصاب المجتمع الاسلامي من اختلاف في الأهواء والميول وتشابك في المصالح بين مختلف فئاته .

وقد ظهرت المعارضة في صفوف قسم من المسلمين لسياسة علي بن ابي طالب في الادارة ذلك انه اصر على عزل ولاية عثمان على الأمصار ، هؤلاء الولاة الذي كانت تصرفاتهم وعصبيتهم للأمويين من اهم الاسباب في الثورة على عثمان . وقد كلمه المغيرة بن شعبة في شأن ولاية عثمان وأشار عليه بان يثبت هؤلاء الولاة على اعمالهم حتى تتم البيعة له في تلك الولايات ويهدأ الناس « ارسل الى عبد الله بن عامر والى معاوية والى عمال عثمان بعهودهم تُقرهم على اعمالهم ويبايعون لك الناس ، فانهم يهدثون البلاد ويسكنون الناس » (٢) ولكن علياً أبى ذلك وأرسل عماله على الامصار : « فبعث عثمان بن حنيف (الانصاري) على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وكانت له هجرة ، وعبد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام » (٣) فاخترت علي هؤلاء الولاة على الأمصار الكبرى في دولة الخلافة ، اصاب قريشاً بضربة قاسية في كبرياتها وسلطانها ونفوذها ، لان هؤلاء الولاة جميعاً من غير قريش . وربما كان اختيار علي لهؤلاء العمال « لأنه أراد أن يرضي الأنصار بهذا الاختيار ، فهو قد اختار منهم ثلاثة لهذه الأمصار الخطيرة : البصرة والشام ومصر » (٤) . ودخلت هذه الامصار في بيعة علي ما عدا ولاية الشام حيث ردَّ واليها الذي ارسله علي وامتنع سكانها عن الدخول في

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٤٢ .

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٣٩ .

٣ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٤٢ .

٤ - طه حسين : الفتنة الكبرى (٢) علي بن ابي طالب مجلد ٤ ص ٤٥٠ .

الجماعة . وساعد ذلك تجديد حدة انقسام المسلمين وتصدع وحدتهم .

كذلك فقد كان لسياسة علي بن ابي طالب المالية وموقفه الصارم من الثروات التي تكونت في ايام عثمان باسباب غير مشروعة ، واسلوب توزيع العطاء اثره في معارضة طبقة من المسلمين ، كانت تتمتع بالامتيازات والثروات الالائلة زمن عثمان بن عفان فقد أعلن بن ابي طالب في الخطب الأولى التي استهل بها حكمه مصادرة جميع ما اقتطعه عثمان من القطاعات ، وما وهبه من الاموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين ، كما أعلن انه يتبع مبدأ المساواة في العطاء فقال : « والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق »^(١) وقال في خطاب آخر : « ألا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الانهار وركبوا الخيول الفارهة ، واتخذوا الوصائف الروقة فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً ، اذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه ، واخرتهم الى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ويتسكرون ويقولون : حرمتنا ابن ابي طالب حقوقنا ، ... فانتم عباد الله ، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية لا فضل منه لاحد على احد »^(٢) . كذلك فقد أعلن العودة الى نظام التسوية في العطاء الذي كان يطبقه الرسول (ﷺ) وابو بكر ، ولما احتج زعماء قريش على التسوية بين المسلمين في العطاء قال علي : « وأما ما ذكرتم من امر الاسوة فان ذلك امر لم احكم انا فيه برأيي ولا وليته هوى مني ، بل وجدت انا وانتما ما جاء به رسول الله (ﷺ) قد فرغ منه فلم احتج اليكما فيما قد فرغ الله من قسمه وامضى فيه حكمه »^(٣) وهكذا فقد استطاع علي ان يحسم بسرعة قضية الادارة ويقضي على التفاوت الطبقي في المجتمع الاسلامي الذي كان قائماً زمن عثمان ، واضعف بذلك قوة الطبقة الارستقراطية التي تكونت في عهد عثمان ، وذلك حين صادر قطائع عثمان والأموال التي أعطاها . وقد كان لهذه السياسة اثرها السيء في

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٦٩ .

٢ - المصدر السابق : ج ٧ ص ٣٧ .

٣ - نهج البلاغة : ج ٢ ص ٢١١ .

نفوس الارستقراطية القرشية وهو ما يعبر عنه ابو جعفر « وكان هذا اول ما انكروه من كلامه عليه السلام واورثهم الضغن عليه وكرهوا اعطاءه وقسمه بالسوية »^(١) .

وقد حاول قادة الطبقة الارستقراطية القرشية مساومة علي بن ابي طالب على بذل طاعتهم له فارسلوا اليه الوليد بن عقبة بن ابي معيط يقول له : « يا ابا الحسن ، انك قد وترتنا جميعاً . . . ونحن اخوتك ونظراؤك في بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما اصبناه من المال في ايام عثمان ، وان تقتل قتلتك ، وانا ان خفناك تركناك فالحقنا بالشام »^(٢) . ولما ايقن زعماء هذه الطبقة انهم لن يفلحوا عن طريق المساومة والتهديد في تحقيق مآربهم والاحتفاظ بالمكاسب الاقتصادية التي جنوها في عهد عثمان لجأوا الى السعي لنقض البيعة . وكان من ابرز افرادها طلحة والزبير وقد كانا قد طالبا في بدء خلافه علي بالإمارة على البصرة والكوفة ، ولكن عليا ردهما رداً رقيقاً بقوله لهما « تكونان عندي فاتحمل بكما ، فاني وحش لفراقكما »^(٣) .

وهكذا فعندما لم يتمكن طلحة والزبير من تحقيق اهدافهما في السيادة والغنى احتجا بانهما « بايعا عليا كارهين غير طائعين »^(٤) .

واستأذن طلحة والزبير عليا في العمرة وقد شعر علي بان طلحة والزبير يخططان لأمر ما فقال لهما عندما دخلا عليه يستأذناه : « ما العمرة تريدان ، انما تريدان العذرة ونكت البيعة »^(٥) . ولكنه أذن لهما .

وهكذا فان طلحة والزبير حين لم يتمكنوا من تحقيق اهدافهما خرجا الى مكة حيث تجمعت الفئات المعارضة لعلي من بني امية وانضمت اليهما ام المؤمنين السيدة عائشة . ولا بد هنا من الاشارة الى التغير المفاجيء في موقف عائشة من ناقمة

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٧ ص ٣٧ .

٢ - المصدر السابق : ج ٧ ص ٣٨ / ٣٩ .

٣ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٩٩ .

٤ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٠ .

٥ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٢٣٢ .

على عثمان إلى مطالبه بالثأر له بعد تسلم على بن ابي طالب أمور الخلافة . . فقد كانت من قبل تخرض على قتل عثمان وتقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر »^(١) ولكنها عندما علمت بمقتله وباجتماع اهل المدينة على علي انصرفت راجعة الى مكة بعد ان قضت عمرتها وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه »^(٢) . فان ابن أبي الحديد يشير الى هذا التغير ويعلله بقوله : « وقد كانت عائشة اشد الناس تأليباً وتحريضاً على عثمان فقالت : ابعده الله ! لما سمعت قتله واملت ان تكون الخلافة في طلحة فتعود الإمرة يتمية كما كانت اولاً ، فعدل الناس عنه الى علي بن ابي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه قتل عثمان مظلوماً »^(٣) وهنا تظهر النزعة القبلية ، فهي تفضل ان تكون الخلافة في تيم رهط ابي بكر ، ورهطها ، وتكره أن يليها بنو هاشم ، هذا بالاضافة إلى « الخصومة التي كانت بين علي وعائشة والتي كان لحادثة الإفك أبعد الاثر واعمقه في نفس عائشة فحقدت على كل الذين اتهموها ، وكان علي منهم حتى انه اشار على النبي بتطليقها قائلاً : والنساء سواها كثير . . . فكان موقف علي سبباً في ان يشير في نفس عائشة ألماً وحقداً »^(٤) .

وركز المعارضون لعلي على البصرة في دعوتهم ضده وانما كان اختيارهم كما اشار عليهم عبد الله بن عامر « فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى »^(٥) . وكانت السيدة عائشة وطلحة والزبير رؤساء وقواد الثورة على علي ، وقد استطاعوا ان يستولوا على البصرة . اما علي فقلده سار على العراق وقصد الكوفة « فاهل الكوفة اشد حباً لعلي وفيهم رؤوس العرب واعلامهم »^(٦) وهكذا فقد تبلور انقسام

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٩ .
 - ٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٥٩ وفي موضع آخر تقول السيدة عائشة « ان عثمان قتل مظلوما وان الامر لا يستقيم وهذه الغوغاء امر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام » ج ٤ ص ٤٤٩ .
 - ٣ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ١٩٩ .
 - ٤ - زاهية قدورة : عائشة ام المؤمنين ص ٢٤٠ .
 - ٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٠ .
 - ٦ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٤٧٧ .

المسلمين في هذه الموقعة في اتجاهين حربيين متصارعين. الاتجاه الاول ويشتمل على شيعة علي وفيهم أهل الكوفة ويتمثل الاتجاه الثاني في عائشة وطلحة والزبير وأهل البصرة ، وكانت نتيجة المعركة التي عرفت بحرب الجمل « ان الزبير قتله ابن جرموز وقت الانصراف . وأما طلحة فرماه مروان بن الحكم بسهم وقت الإعراض (عندما اعتزل في بعض الصفوف فخر ميتا) واما عائشة فكانت محمولة على ما فعلت ثم تابت بعد ذلك ورجعت »^(١).

والواقع ان من اهم اسباب الثورة على علي في هذه المعركة لم يكن الثأر لمقتل الخليفة عثمان وانما كانت نتيجة صراع على تولي السلطة ، فالصراع ضد علي قام به جميع الطامعين في الخلافة ، وقد اخذوا من مقتل عثمان والثأر له ذريعة لاثارة الجماهير . والطبري يؤكد الغاية من خروج طلحة والزبير على علي في معركة الجمل بانها الطمع في الخلافة فيقول : « خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الامر اصدقاني . قالوا : لاحدنا اينما اختاره الناس »^(٢) وفي هذا الاتجاه يقول ابن ابي الحديد : « لما قتل عثمان ارادها طلحة وحرص عليها (اي الامارة) فلولا الاشترا وقوم معه . . . جعلها في علي لم تصل اليه ابداً فلما فاتت طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم على علي وأخرجوا ام المؤمنين معها وقصدا العراق واثارا الفتنة »^(٣).

« وقد كانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان هي ان الخلافة القديمة قد انتهت في مدينة الرسول وان الخلافة الجديدة جعلت مقرها بعيداً عن المدينة وقضي على قداسة الخلافة وصار الحكم في النزاع عليها الى السيف »^(٤).

فبعد معركة الجمل انتقل مركز الخلافة الى الكوفة وانتقل مركز الثقل السياسي الى خارج شبه الجزيرة العربية ، واصبحت قوة الدولة في الأمصار ، ولا سيما بعد ان

١ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢٢ .

٢ - الضبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٥٣ .

٣ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٢٩ .

٤ - فلهاوزن . تاريخ الدولة العربية ص ٥٣ .

هاجرت اليها قبائل كثيرة وسكنت فيها وقطعت صلتها بالجزيرة . فالحقيقة انه بعد عصر الفتوح ، وهجرة القبائل إلى الأمصار ، واتساع رقعة الدولة وتشابك المصالح ونشأة الحزبية السياسية ، كان من الطبيعي أن لا تبقى المدينة وجماعة الناس الذين ظلوا يسكنونها المسيطرين الوحيدين على تسيير الأمور . فقد بدأ شأن الأمصار يعلو ويظهر أثره في تقرير شؤون الدولة الاسلامية منذ الثورة على عثمان ومقتله . فقد صار للقبائل التي سكنت في تلك الامصار قوة لا يستهان بها . فعلي لا يستطيع الاقتصاص من الثوار الذي قتلوا الخليفة الثالث فهو يخاطب الصحابة في شأنهم « كيف اضع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبداتكم ، وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون »^(١) . وهكذا فانه نتيجة لتغير ظروف الدولة الجديدة

فقد أدت المنازعات السياسية واقتراق المسلمين الى شيع واحزاب الى تصدع الرابطة القبلية في كثير من الاحيان ، ولا سيما حين تكون بطون القبيلة الواحدة تنزل مواطن شتى فتسير كل جماعة منها في ركاب الرجل اء الحزب الذي له الغلبة في ديارها . ففي معركة الجمل نرى ان القبائل التي استوطنت البصرة ناصر جلها عائشة وطلحة والزبير ، في حين ان قبائل الكوفة وقفت إلى جانب علي . وهكذا برز عامل جديد خضع العربي لسلطانه وهو التحزب السياسي بمفهومه الواضح الدقيق

ففي معركة الجمل ، نرى اثر التحزب السياسي واضحاً في القتال الذي نشب بين قبائل البصرة والكوفة ، والذي كان في الحقيقة قتالاً بين فروع لقبائل تجمعها العصبية المشتركة ، حتى ليخيل اليها ان العصبية القبلية قد اندثرت في نفوس افراد تلك القبائل . ولكن الحقيقة ان عامل التحزب السياسي قد طغى على النفوس منذ ان صار لكل بلد غرض خاص في السياسة ، فاجتمع اهل البلد الواحد على هدف سياسي موحد ، بالرغم من كونهم اخلاطاً من قبائل شتى تختلف نسباً وعصبية .

١ - نظري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٣٧ .

« ففي وقعة الجمل تصدت قبائل اليمن البصرية لقبائل اليمن الكوفية ، ونزلت قبائل مضر الى مضر ، وربيعه الى ربيعة ، فكان بعضهم بحيال بعض »^(١) . كذلك ففي اثناء القتال « هزمت يمن البصرة يمن الكوفة وربيعه البصرة ربيعة الكوفة ، ونهد علي بمضر الكوفة الى مضر البصرة »^(٢) .

وهكذا فقد وقفت كل قبيلة من اهل البلد الواحد امام ما يقابلها من قبيلتها في البلد الآخر وهو ما ينافي العصبية القبلية ، ولكنه يظهر اثر التحزب السياسي الذي سيطر على النفوس .

وبعد معركة الجمل استطاع علي من مقر خلافته في الكوفة ان ينشر سيادته على جميع اجزاء الدولة الاسلامية ما عدا ولاية الشام التي لم تدخل في الجماعة لذلك وجه علي جرير بن عبد الله البجلي الى معاوية يدعوه الى البيعة^(٣) ولكن معاوية يأبى البيعة لعلي ويبايعه اهل الشام على الطلب بدم عثمان اميراً لا يطمع في الخلافة ثم الامر شورى^(٤) .

فأهل الشام ظلوا على ولائهم لمعاوية بن ابي سفيان اذ « كان لهذه الولاية مركز انفردت به لان معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا اليها مهاجرين كغيرهم ، وكان لهم الى جانب ذلك تقاليد غير التي كانت لاهل الكوفة والبصرة . . . وكانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود »^(٥) .

وكان لا بد من المواجهة بين علي ومعاوية ، اذ لا يصح ان تبقى ولاية من الولايات الاسلامية وهي ولاية الشام خارجة عن طاعة الخليفة الرابع . فقد كان علي في نزاعه مع معاوية يمثل حقوق الدولة ضد ما يطالب به معاوية والامويون من الثأر

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٠٥ .

٢ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٥١٤ .

٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥١٦ والمبرد : الكامل في اللغة والادب ج ١ ص ١٩٠ .

٤ - نصر بن مزاحم : وقعة صفين ج ٢ ص ٨٢ .

٥ - فلها وزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٥ .

لمقتل قريبهم عثمان . وكانت معركة صفين التي تعتبر العامل الفعال في وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي . ففي صفين انحصر الصراع بين المسلمين في اتجاهين حزبيين محددين :

الاتجاه الاول ويمثله اهل العراق المؤيدون لعلي والاتجاه الثاني ويمثله اهل الشام المؤيدون لمعاوية اضافة الى من انضم اليهم ممن هرب من اصحاب الجمل كعتبة بن ابي سفيان وعبد الرحمن ويحيى ابني الحكم وابن عامر^(١) كذلك « فمن كان بالكوفة والبصرة من العثمانيين قد هربوا فنزلوا الجزيرة في سلطان معاوية »^(٢) .

وقد اتخذ كل فريق اسبابا وحججاً لتبرير موقفه من قتال الفريق الآخر . « فمعاوية واهل الشام خالفوا عليا ودعوا الى الطلب بدم عثمان »^(٣) . أما علي فكان يرى انه بريء من دم عثمان « وان عليه قتال معاوية لخروجه عن » الطاعة والجماعة »^(٤) .

ولم يكن اصحاب علي يجهلون غاية معاوية في هذا الصراع وانه انما كان ينبغي الامرة والسلطان . فثبت بن ربيعي يقول لعلي : « يا امير المؤمنين ، الا تطمعه في سلطان توليه اياه ومنزلة يكون له بها اثره عندك انه هو بايع »^(٥) فقد كانوا يعلمون ان مخالفة معاوية لبيعة علي انما كانت مناورة سياسية الهدف منها الضغط على الخليفة لتخفيف اهدافه واطماعه في السيطرة على بلاد الشام كذلك فان ثبت بن ربيعي يبني لمعاوية الغاية من خروجه على علي والوسيلة التي اصطنعها لاستمالة الناس وتأبيدهم له ولتبرير هذا الخروج فيقول له : يا معاوية ، اني قد فهمت ما رددت على ابن محصن ، اني والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، انك لم تجد شيئا تستضي به

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٣٥ .
 - ٢ - نصر بن مزاحم : صفين ج ١ ص ١٢ .
 - ٣ - التوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .
 - ٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٧٣ .
 - ٥ - المصدر السابق : ج ٤ ص ٥٧٣ .

الناس وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : « قتل امامكم مظلوماً فمن نطلب بدمه »^(١) .

وفي قول عمار بن ياسر ما يؤكد بأن غاية معاوية ومن ساندته في القتال لم تكن إلا تحقيقاً لمطامعه السياسية في الحكم فهو يقول : « ايها الناس ، اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذي يبيعون دم ابن عفان ، ويزعمون انه قتل مظلوماً ، والله ما طلبتهم بدمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها وعلموا ان الحق اذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم ، ولم يكن للقوم سابقة في الاسلام يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم ، فخذعوا اتباعهم ان قالوا : اما منا قتل مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً »^(٢) .

ومعاوية يعترف بان صراعه مع علي انما هو صراع على السلطة والامارة .

ففي قوله لعمر بن العاص « طمعت فيها بعدي »^(٣) اي الامارة وذلك حين طالبه علي بن ابي طالب بالمبارزة حقناً لدماء المسلمين و اشار عليه عمرو بن العاص بذلك ما يبرز غاية معاوية من القتال . كذلك ففي كتابه الى قيس بن سعد امير مصر يستميله للوقوف الى جانبه ضد علي يقول له : « تابعنا على امرنا ، ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ، ولئن احببت من اهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان »^(٤) .

فالصراع في صفين بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان كان صراعاً سياسياً على سلطة يتنازعها بطنان من يطون قريش (بني هاشم وبني امية) لكل منهما مبادئه واهدافه والمصالح التي يمثلها وعلي هو الفائل « نحن وآل ابي سفيان قوم تعادوا في الامر »^(٥) فالحقيقة ان بني هاشم وبني امية يجتمعان في بني عبد مناف

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٧٣ .

٢ - المصدر السابق ج ٥ ص ٣٩ .

٣ - المصدر السابق ج ٥ ص ٤٢ .

٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٠ .

٥ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٨٠ .

ولكن علياً يرد على معاوية مذكراً آياه بهذه الحقيقة فيعترف بها ، ولكنه يذكره بالفرق بين الأسرتين فيقول : واما قولك انا بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية لهاشم ولا حرب كعبد المطلب ، ولا ابوسفيان كابي طالب^(١) «فانا صنائع ربنا والناس تعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ولا عادي طولنا على قومكم ان خلطناكم بانفسنا ، فنكحنا وانكحنا ، فعل الاكفاء ولستم هناك وانما يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا اسد الله ، ومنكم اسد الاحلاف ، ومنا سيدا شباب اهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب في كثير مما لنا وعليكم ، فاسلافنا قد تسمع وجاهليتنا لا تدفع»^(٢) .

فالعصبية لبني هاشم تظهر جليلة في قول علي بن ابي طالب وتلعب دورها الهام في هذا الصراع على السلطة . فبالرغم من مواقف الامام علي المناهضة للعصبية وللروح القبلية في خطبه ودعوته الصريحة الى مجانبه العصبية نراها تطل برأسها عندما يتعلق الامر في موضوع الخلافة .

ففي خطبته القاصمة دعوة صريحة الى ذم العصبية والضرب على ايدي الداعين اليها « اطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية واحقاد الجاهلية ، فانما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته »^(٣) « وان كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الافعال »^(٤) .

ومما يلفت النظر في صفتين ان العصبية القبلية قد لعبت دوراً هاماً في الصراع الدائر بين علي ومعاوية ، ولكن هذا الدور كان يختلف احياناً عما كان لها قبل ظهور الحزبية السياسية . فمفهوم العصبية القبلية الذي كان يحتم على افراد القبيلة ان

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٦١ ونهج البلاغة ج ٣ ص ١٩ .

٢ - نهج البلاغة : ج ٣ ص ٣٦ (المقصود : بالكذب : ابوسفيان - اسد الله : حمزة بن عبد المطلب اسد الاحلاف : عتبة بن ابي ربيعة - سيدا شباب اهل الجنة : الحسن والحسين - صبية النار : اولاد مروان بن الحكم - خير نساء العالمين : فاطمة ابنة الرسول (ﷺ) - حمالة الحطب : ام جميل بنت حرب .

٣ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٦٥ .

٤ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٧٥ .

ينصروا اخاهم ظالماً كان ام مظلوماً نراه قد تغير واصبح يعمل دعماً وتأييداً لفكرة الحزبية السياسية .

فقد كانت معركة صفين مظهرة قبلية ضخمة واول احتكاك قبلي واسع النطاق يشهده العصر الاسلامي . فالقبائل التي شاركت في هذه المعركة من اخماس البصرة واسباع الكوفة كانت تضم اعداداً ضخمة من حيث تنوعها وكثرتها . فهناك قبائل بكر بن وائل ، وعبد القيس ، والأزد ، وتميم ، واهل العالیه في البصرة وقيس وعبد القيس ، وتميم وضبة والرباب وقریش وكنان واسد وبجيلة وختعم والانصار وخزاعة وكندة وقضاعه ومهرة ومذحج والاشعرين وحمدان وحمر وطيء في الكوفة والشام^(١) فهذه القبائل التي اشتركت في صفوف جيش علي وجيش معاوية كانت مختلفة الأنساب والعصبيات . ولكن الملاحظ انه في اثناء القتال كانت كل قبيلة تحرص ان تقف بازاء اختها وتتكفل بامر قاتلها « فعلي يقول للازد اكفوني الازد ، ولختعم اكفوني ختعماً ، وامر كل قبيلة من اهل العراق ان تكفيه اختها من اهل الشام ، الا قبيلة بجيلة التي لم يكن بالشام منهم الا عدد يسير فصرفهم الى الحزم »^(٢) .

فهذه الظاهرة التي جعلت القبائل تؤثر ان تقف كل قبيلة بازاء اختها تقاثلها انما يظهر اختلاف الاهواء السياسية لرجال هذه القبائل وخضوعهم لسلطان التحزب السياسي ولكن القبيلة حين كانت تضطر لقتال اختها ، لم تكن تنسى صلات الرحم والعصبة التي تربطها بها . وكان ذلك يثير في النفوس الكثير من الحزن والأسى . فحين ندب ازد العراق الى ازد الشام قال مخنف بن سليم : « ان من الخطب الجليل والبلاء العظيم ، انا صرفنا الى قومنا وصرفوا الينا ، فوالله ما هي إلا ايدينا نقطعها بايدينا ، وهي الان اجنحتنا نحذفها باسيافنا »^(٣) كذلك فعندما عزم علي على السير

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٢ ص ١١٧ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٤ ونصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٢٩ .

٣ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٦٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٦ مع تغير في اللفظ .

الى صفين لقتال اهل الشام » احتج رجل من بني فزارة على المسير الى الشام فقال :
 اتريد ان تسيرنا الى اخواننا من اهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا الى اخواننا من
 اهل البصرة فقتلناهم «^(١) فقد كانت بعض هذه القبائل تشعر بانها تتقاتل انتصاراً
 لرجلين من قريش وتحقيقاً لمآربها السياسية ومطامعها في الحكم والخلافة ، وانما
 كانت مرغمة على القيام بهذا العمل وذلك دعماً وتأيداً للاتجاه الحزبي الذي تؤيده
 والتي تنتمي اليه ، وانماؤها الحزبي هذا يحتم عليها اطاعة وتنفيذ ما يحقق اهداف
 هذا الاتجاه .

فعندما « حمل شمر بن عبد الخثعمي من اهل الشام على ابي كعب رأس
 خثعم الكوفة فطعنه فقتله انصرف يبكي ويقول : رحك الله يا أبا كعب ، لقد
 قتلتك في طاعة قوم انت امس بي رحماً منهم واحب الي نفساً منهم ، ولكن ما ادري
 ما اقول ، ولا ارى الشيطان الا قد فتنا ، ولا ارى قريشاً الا قد لعبت بنا «^(٢) .

كذلك ففي صفين سمعت امرأة وقد قتل لها ثلاثة اولاد وهي تقول :
 اعيني جوداً بدمع سرب على فتية من خيار العرب
 وما ضرهم غير جنى النفوس باي امرىء من قريش غلب^(٣)

ولكن العصبية القبلية كانت كثيراً ما تظهر في صفوف الجيش الواحد بمفهومها
 التقليدي حين يحدث التنافس بين قبيلتين مختلفتين في النسب لاسباب عديدة . فقد
 حدث التنافس بين ربيعة ومضر في جيش علي بن ابي طالب وذلك حين شعرت مضر
 بايثار علي لربيعة ، وبفضيله لها فقد « كان علي لا يعدل لربيعة احداً من الناس ،
 فشق ذلك على مضر وظهروا لهم القبيح ، وابدوا ذات انفسهم وقالوا لعلي : ان
 هذا الحمي من ربيعة قد ظنوا انهم اولى بك منا ، وانك لهم دوننا فاعفهم عن القتال
 اياماً واجعل لكل امرىء يوماً يقاتل فيه فانا اذا اجتمعنا اشتبه عليك بلاؤنا «^(٤) .

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٩٤ .

٢ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٤ ص ٢٥٧ .

٣ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠ .

٤ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٥ ص ٣٠٩ .

كذلك فبعض قبيلة عك كان يدعو قومه الى الاستبسال في القتال حتى لا تشمت به مضر^(١) وان ظهور العصبية القبلية في هذه المواقع وضمن صفوف الجيش الواحد انما كان يهدف الى مناصرة وتأييد الاتجاه الحزبي الذي تسير في ركابه ودعمه .

ولكن معركة صفين لم تنته بانقسام المسلمين في اتجاهين حزينين كما بدأت ، بل ان تسارع الاحداث ووقوع امر التحكيم أدى الى ظهور اتجاه حزبي جديد ضمن الجماعة الاسلامية .

ففي ليلة الهزير^(٢) كادت الدائرة تدور على معاوية واهل الشام لولا ان لجأ عمرو ابن العاص الى الحيلة وامر اهل الشام برفع المصاحف على رؤوس الرماح وذلك لايقاع الفرقة في صفوف اهل العراق فعمر بن العاص يشير على معاوية بقوله : « نرفع المصاحف ثم نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فتكون فرقه تقع بينهم »^(٣) ويدرك علي حيلة عمرو بن العاص ويقول لاصحابه : « ويحكم ! انهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعونها ، ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم الا خديعة ودهناً ومكيدة »^(٤) ولكنه يضطر الى قبول التحكيم تحت الحاح وتهديد جماعة ممن كانوا معه في حرب صفين منهم : « الاشعث بن قيس ، ومسر بن فذكي التميمي ، وزيد بن حصن الطائي حين قالوا : القوم يدعوننا الى كتاب الله ، وانت تدعوننا الى السيف . . . لترجعن الاشر عن قتال المسلمين ، والا لنفعلن بك كما فعلنا بعثمان ، فاضطر الى رد الاشر بعد ان هزم الجمع وولوا مدبرين »^(٥) . وقد تابع الاشعث القيام بدور الوسيط بين الطرفين المتحاربين ، وكان له دور كبير في اختيار ابي موسى الاشعري حكماً عن اهل العراق . فقد كان علي يريد ان يبعث عبد الله بن عباس ولكن الاشعث يتذرع بالعصبية القبلية لتبرير

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٥ ص ٣٠٢ .

٢ - المطبيري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٧ .

٣ - المصدر السابق : ج ٥ ص ٤٨ .

٤ - المصدر السابق : ج ٥ ص ٤٩ والمسنودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨

٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧١

عدم موافقته على اختيار عبد الله بن عباس لكونه مريضاً كما كان عمرو بن العاص الذي اختاره اهل الشام حكماً لهم ، فهو يقول : « لا والله لا يحكم فيها مريضان حتى تقوم الساعة ، ولكن اجعله رجلاً من اليمن اذ جعلوا رجلاً من مضر . . والله لا يحكمنا ببعض ما نكره واحدهما من اهل اليمن ، احب اليانا ان يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مريضان »^(١) وهنا تظهر العصبية بين المضرية واليمينية .

وقد كان لطبقة القراء في العراقيين التأثير الحاسم ، فهم الذين حملوا الناس على قبول التحكيم وارغموا عليا على التسليم به ، ولكنهم ايضاً كانوا من اشد الناس ثورة واحتجاجاً على معاهدة الصلح وقرار التحكيم الذي انتهى لغير صالحهم . فقد اعتبروا ان الفصل في موضوع الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر بل ينبغي الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح . وهكذا اتخذوا « لا حكم الا لله » شعاراً لهم وانسحبوا من جيش علي واصحابه^(٢) . وعرفوا في تاريخ الاسلام بسبب انفصالهم « بالخوارج بعد ذلك »^(٣) . وقد انكروا حق كل من معاوية وعلي في الخلافة . وكان شعارهم « لا حكم الا لله » يعني رفض التحكيم ونتائجه فقط ، بل ورفض اماره علي ولذلك كان تعليق علي عندما سمع هذا الشعار : « كلمة عادلة يراد بها جور ، انما يقولون لا اماره ولا بد من اماره برة او فاجرة »^(٤) .

وقد استطاع معاوية بمواهبه السياسية ودهائه من استغلال الموقف الذي فرض على علي وأدى الى انقسام خصوم بني امية قسمين جديدين : فهناك الخصومة الدينية التي لا تقبل المصالحة والتي بلغت اوجها في مذاهب الخوارج والمتطرفين ، وهناك ايضاً الشيعة الذين يؤيدون علياً . وكان هذا الانقسام من حسن حظ الامويين الذين مثلوا دور المعتدلين الذين ارادوا ان يحافظوا على القانون والنظام امام الحروب التي كادت تبعد العراق .

١ - نصر بن مزاحم : صفين ج ٨ ص ٥٠٠

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢

٣ - المصدر السابق ج ٥ ص ٤٩ .

٤ - المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١٣١

وانتهى الامر بالمسلمين بعد مقتل علي سنة ٤٠ هـ^(١) . وحين ولي معاوية الخلافة^(٢) انهم كانوا ثلاثة احزاب :

- ١ - حزب بني امية : ومقره بلاد الشام ، وقد كان له من النفوذ في ذلك الحين ما مكنه من ايصال الامويين الى الحكم ، اذ كان اعضاؤه يرون ان امراء هذا البيت احق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (ابو بكر وعمر وعثمان) وانهم اصحاب الحق بالاخذ بثأر عثمان لما كانت تربطهم به من اواصر القرابة .
 - ٢ - حزب الشيعة : وهم انصار اهل البيت المدافعون عن حقوقهم في الخلافة ولا سيما حق علي بن ابي طالب ومقرهم العراق .
 - ٣ - حزب الخوارج : « وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الاكفاء أنني كانت الطبقة التي ينتمون اليها »^(٣) .
- وقد كان لكل حزب من هذه الاحزاب اتباع وشيع يدينون برأيه في الخلافة . وعلى هذا اخذ كل حزب يناضل غيره من الاحزاب واشتد النزاع بينها واستمر طيلة الحكم الاموي والعباسي .

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ١٤٨

٢ - المصدر السابق ج ٥ ص ١٦٠

٣ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٠ .

الفصل الثالث

نشأة الفرق الاسلامية .

كان لمعركة صفين وللتحكيم اثرهما الجلي في وضوح الرؤية الحزبية في المجتمع الاسلامي . فقد صار المسلمون بعدهما احزابا وشيعاً ، كل حزب يرى ان الحق بجانبه وان المصلحة تتحقق في استخلاف من يؤيده . ونحن اذا نظرنا الى نشأة هذه الأحزاب بالمفهوم الحديث للحزبية لقلنا انها مسألة سياسية خالصة ، فالصراع بين المسلمين كان صراعاً سياسياً حول منصب الخلافة وحول احقية كل طرف من اطراف النزاع في هذا المنصب . ولكن الامر لم يكن على هذا النحو في ذلك العصر ، بل ان هذه الاحزاب السياسية اصطبغت بصبغة دينية قوية ، نظراً لما كان للدين من أثر ومكانة في النفوس في ذلك العصر ، لذلك فقد « اصطبغت الاحزاب السياسية صبغة دينية قوية ، وصار كل حزب سياسي فرقة دينية وصار الذين يقتتلون سياسياً يقتتلون دينياً ، وبدل ان يسمى الحزب اسماً سياسياً يدل على المبدأ السياسي الذي يدعوا اليه ، تسمى اسماً يدل على المذهب الديني : كشيعية وخوارج ومرجئة ، وبدل أن يتحاجوا بما ينتج عن اعمالهم من مصالح ومفاسد تحاجوا بالكفر والايمان والجنة والنار »^(١) .

وهكذا كان الخلاف السياسي سبباً من أسباب الخلاف الديني وسبباً في نشوء العقائد والفرق . . .

١ - احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٥

« فجميع اصول الفرق كلها الجامعة لها اربع فرق : « الشيعة »
« والمعتزلة » و« المرجئة » و« الخوارج »^(١) .

اما فيما يختص بأمر هذه الفرق الإسلامية فلسنا هنا في معرض تفصيل القول في
الاراء والافكار لهذه الفرق وإن ما يهمنا هو نشأة تلك الفرق وأثر العوامل السياسية
في ظهورها وتطورها . فأهمية دراسة الفرق الإسلامية تعود إلى أن هذه الفرق هي
تعبير صادق عما كان يعيشه المجتمع الاسلامي من صراعات حادة سياسية واجتماعية
واقتصادية وفكرية .

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٥ والشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٦ . يعدها اربع فرق :
القدرية (المعتزلة) - الصفاتية (المرجئة) - الخوارج - الشيعة ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب
عن كل فرقة اصناف فتصل الى ثلاث وسبعين فرقة » .

الشيعة

الشيعة هو الاسم الشامل لمجموعة كبيرة من فرق اسلامية مختلفة ترجع نشأتها جميعاً الى القول بان علياً هو الخليفة الشرعي بعد وفاة النبي والشيعة لغة « هم الصحب والاتباع . ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي رضي الله عنهم »^(١) .

والشيعة في كتب الفرق « هم الذين شايعوا علياً رضوان الله عليه ويقدمونه على سائر اصحاب رسول الله (صلعم) »^(٢) وهم ايضاً القائلون بامامته وخلافته نصاً ووصية اما جلياً أو خفياً^(٣) .

أما لفظة شيعة فكانت تستعمل قديماً بمعنى الصحب والاتباع ولم تكن مقصورة على اصحاب علي وحدهم وانما كان لمعاوية شيعة ايضاً . فقد جاء في نص الصحيفة التي كتبت للتحكيم بعد رفع المصاحف في صفين « هذا ما تقاضى عليه علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان ، قاضى علي على اهل العراق ومن كان شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على اهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين »^(٤) . وفي الطبري اشارات عديدة الى لفظة الشيعة بمعنى الصحب والاتباع . فمعاوية يقول لأهل الشام : « لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة » وفي موضع آخر يقول معاوية : « وهممت ان

١ - الزبيدي : تاج العروس مجلد (٥) ص ٤٠٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٨ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٥ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢ .

٣ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٥ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٣ ونصر بن مزاحم : صفين ص ٥١٠ .

اكتب بذلك الى شيعتي من اهل العراق»^(١) . اما نشأة حزب الشيعة فيعود الى زمن وفاة النبي (ﷺ)^(٢) ومن اعضاء هذا الحزب في ذلك الوقت «المقداد بن الاسود وسلمان الفارسي وابوذر جندب بن جنادة الغفاري وعمار بن ياسر»^(٣) ذلك انه عندما توفي النبي (ﷺ) ولم يعرف المسلمون معرفة صحيحة رأيه في ولاية الحكم في الجماعة الاسلامية ، اصبحت المسألة المهمة الشاغلة لاذهان المسلمين هي الفصل في مسألة الخلافة او الامامة . وقد نشأ بين كبار الصحابة منذ بدأت مشكلة الخلافة حزب نقم على الطريقة التي انتخب بها الخلفاء الثلاثة ابو بكر وعمر وعثمان الذين لم يراع في انتخابهم درجة القرابة من اسرة النبي ، وقد فضل هذا الحزب عليا ولكنه لم يدخل في نزاع مكشوف للدفاع عن ولاية الحكم . ولكن عندما استقر الامر لعثمان ورأى فيه الامويون استعادة لمجدهم القديم اشتدت الدعوة عند شيعة علي حتى اذا قتل عثمان برز الحزب الشيعي او شيعة علي بن ابي طالب مقابل حزب معاوية او شيعة معاوية وكان حزب الشيعة ككل حزب ينضم اليه المخلص لمبادئه ، ومن يرى المنفعة فيه . فتشيع قوم ايماناً بأحقية علي للخلافة واولاده من بعده ، وتشيع قوم كرهوا الحكم الاموي « لأنهم كرهوا ان يروا سوادهم في ايدي الامويين الذين كانوا يطلقون عليه بستان قريش »^(٤) ، كذلك فقد تشيع كثير من الموالي لانهم رأوا الحكم الاموي حكماً مصبوغاً بالارستقراطية العربية وان الامويين لم يعاملوهم معاملة العرب^(٥) . فمن خلال دراسة الحركة التي قام بها المختار بن ابي عبيدة الثقفي نرى المصادر العربية تذكر ان المختار اتجه بدعوته بالدرجة الاولى الى اوساط الناس وعامتهم . وبما ان عنصر الموالي كان اكثره ينتمي الى الطبقات المضطهدة توجه المختار بدعوته اليها ، فكثير عنصر الموالي بين اصحاب المختار .^(٦) فاصحاب

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٥٥٢ .

٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢

٣ - المصدر السابق ص ١٦

٤ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٦ .

٥ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ وما بعدها (باب المتعصبين للعرب) .

٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٥ - ٢٨ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ .

المختار كانوا في اغلبيتهم العظمى من الفئات المحرومة ان عرباً او موالي ، فهذه الطبقات المحرومة وجدت في التشيع مخرجاً للخلاص من محتتها الاقتصادية والاجتماعية»^(١) . « فالمختار جعل للموالي من الفيء نصيباً »^(٢) وهذا يعتبر من المكاسب التي حصل عليها الموالي في انضمامهم الى الشيعة . كذلك فالعداء القبلي فرض على قوم من قبائل العرب الانضمام الى الحزب الشيعي نتيجة تعصب بعض القبائل الأخرى للأمويين . والى جانب العرب تشيع قوم من الفرس وحاربوا الدولة الاموية وذلك كرهاً للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم ، فالحقيقة انه قد اعتنق التشيع كل من كان يريد استقلال بلاده والخروج عن مملكته .^(٣) وهكذا فقد ساعدت تلك الحالات الاجتماعية التي نشأت في الدولة العربية على انتشار عقائد الشيعة في جزء عظيم من الدولة الاسلامية بقدر ازدياد تذر المسلمين وسخطهم ثم ضعف الدولة الاموية وانحلالها »^(٤) .

أما التاريخ السياسية للشيعة فهو عبارة عن ثورات متعددة ضد الحزب الاموي الحاكم » فالشيعة جسدت الرفض السياسي لبقاء السلطة خارج اهل البيت »^(٥) .

فقد حاربت شيعة علي الامويين أول الامر للدفاع عن حق علي في الخلافة فكانت معركة صفين ، ولكنهم اضطروا الى الاذعان والرضوخ فترة من الزمن بعد ان تولى معاوية الخلافة واصبح صاحب السلطان المطلق بعد تنازل الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة الى المدينة^(٦) .

وكان من اثر انتقال مركز الخلافة من العراق الى الشام زمن الامويين ان

-
- ١ - طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٩ .
 - ٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٣ - ٤٤
 - ٣ - احمد افين : فجر الاسلام ص ٢٧٦ - ٢٧٧
 - ٤ - فان فلوتن : السيادة العربية الشيعة والاسرائيليات ص ٧٩
 - ٥ - طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٤ .
 - ٦ - ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٤٧

تمركزت المعارضة للحكم الاموي في العراق . فقد كان العراق من اشهر الاقاليم التي تمركز فيها الشيعة وكان جميع سكان العراق خصوصاً اهل الكوفة شيعة وكان علي في نظرهم رمزاً لسيادة بلادهم المفقودة «^(١)» . وقد تحركت الشيعة بقوة في عهد يزيد بن معاوية وذلك حين سار الحسين بن علي لقتاله . وكانت مأساة كربلاء سنة ٦١ هـ حين خذله الكوفيون بعد ان وعدوه بالنصرة .^(٢) وقد تغيرت ظروف الشيعة عامة بعدمقتل الحسين فتحول تفضيلهم لعلي الى ولاء له وعداً لاعداء اهل بيته « فقد كان التشيع قبل مقتل الحسين رأياً سياسياً نظرياً لم يصل الى قلوب الشيعة ، فلما قتل الحسين امتزج التشيع بدمائهم واصبح عقيدة راسخة في نفوسهم »^(٣) لذلك فأول رد فعل مباشر لمقتل الحسين كان حركة التوابين في الكوفة سنة ٦٥ هـ الذين اعتمدوا على العاطفة الدينية وجعلوها العامل الاكبر في تحريك الناس فقد كان شعارهم « يا لثارات الحسين »^(٤) وقد خرج التوابون لقتال اهل الشام توبة على انفسهم لخذلانهم الحسين بن علي ولكنهم هزموا هزيمة منكرة في عين الوردة وقتل معظم رؤسائهم بمن فيهم سليمان بن صرد زعيم التوابين في ربيع الآخر من هذه السنة^(٥) .

ثم كانت حركة المختار بن ابي عبيدة الثقفي الذي اتجه الى الكوفة واستولى عليها في ربيع الاول سنة ٦٦ هـ وامتد سلطانه حتى شمل سواد العراق والموصل وبعض بلاد الجزيرة والجلال واذربيجان وارمينية^(٦) . وقد اتجه المختار الى الكوفة محاولاً الانطلاق منها بالثورة لان الكوفة كانت تمثل الحصن الحصين للتشيع وعندما اراد ان يستعين بالشيعة لانجاح ثورته اتخذ من شعار الثأر للحسين جوازاً الى نفوسهم وطريقة لاكتساب سندهم وكانت ابرز نقطة في برنامجهم الذي طلب من الناس البيعة على أساسه « الطلب بدماء اهل البيت وجهاد المحليين »^(٧) ولكنه

١ - فلهاوزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية ص ١٤٨ .

٢ - ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٦٣ وما بعدها .

٣ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٣٩٩

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٨٣

٥ - المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٣ وما بعدها .

٦ - المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤

٧ - المصدر السابق ج ٥ ص ٦٠٦

اضاف الى العاطفة الدينية التي جعلها التوابون العامل الاكبر في تحريك الناس الاهتمام بشؤون الشيعة الاقتصادية المعاشية ، لذلك فقد كانت العبارة الاخيرة في البرنامج الذي طرحه على الناس اول وصوله الى الكوفة ان احد اهداف حركته كان « الدفع عن الضعفاء »^(١) وكان يعني بها المستضعفين من الناحية الاقتصادية وبالتالي من الناحية الاجتماعية .

وقد كان اختيار المختار لحركته شعار الدفاع عن المقلين وعن الطبقات المحرومة اثره الكبير في نفوس هذه الطبقات التي وجدت في انضمامها الى المختار الامل في تحسين اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية لذلك فقد كثر عنصر الموالي بين اصحاب المختار^(٢) « وكان رئيسهم كيسان ابو عمرة مولى عرينة وهو صاحب حرس المختار او صاحب شرطته »^(٣) وكان يدرك المشكلات الاقتصادية لدى الكثير من الموالي ومن هم في مثل وضعهم الاقتصادي من العرب من ابناء الطبقة الدنيا ويبيدي استعداداه للتعاطف معهم . وقد وجد الموالي في انضمامهم الى حركة المختار ما كانوا يطمحون اليه حين منحهم الحقوق التي كانت للعرب من اهل الكوفة وذلك حين خاطبهم المختار بقوله : « انتم مني وانا منكم »^(٤) كذلك فقد حصلوا على بعض المكاسب المادية نتيجة انضمامهم الى حركته وذلك حين اعطاهم المختار « حين حصر ابن مطيع في التصر كل رجل خمسمائة درهم »^(٥) .

كذلك يمكننا ملاحظة الصراع الطبقي في المجتمع الكوفي ايام المختار بين اشراف الكوفة وبين شيعة المختار ، فاشراف الكوفة لم يؤيدوا حركة المختار وكانوا يفضلون النظام السياسي القائم لموافقتهم لمصالحهم بينما شيعة المختار كانت ترغب في محاربة النظام القائم لتحسين اوضاعها . وقد اجمع الرأي عند اشراف الكوفة على

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٥ - ٢٨ - ٤٣ - ٤٤ - ٦٩ .

٢ - المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٠ .

٣ - المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣ .

٤ - المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣ .

٥ - المصدر السابق : ج ٦ ص ٣٣ .

قتال المختار^(١) ويمكننا ملاحظة الصراع الطبقي في قول عبد الرحمن بن محنف لأشراف الكوفة : « ومع الرجل - اي المختار - شجعانكم وفرسانكم من انفسكم ومعه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واجدة وعبيدكم ومواليكم اشد حنقاً عليكم من عدوكم فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم »^(٢) .

ولا ننسى ان هدف المختار من القيام بحركته هو السيطرة والسلطان وانه انما حاول استمالة الموالي لدعم حركته في قتال بني امية وابن الزبير وها هو يحاول المساومة على هؤلاء الموالي مع اشراف الكوفة ظمعا في عونهم فهو يخاطب اشراف الكوفة بقوله : « ان انا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم فيكم ، اتقاتلون مع بني امية وابن الزبير »^(٣) .

ولم يكن الاهتمام بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية كافيا لانطلاق المختار بحركته ، بل كان لا بد من شحنها بالعاطفة الدينية وذلك بالانتساب الى احد اهل البيت البارزين . وقد وجد المختار في شخص محمد بن الحنفية خير معين ؛ لما كان لابن الحنفية من مكانة في نفوس الشيعة فهو « ولي الامر ، ومعدن الفضل ، ووصي الوصي والامام المهدي »^(٤) لذلك كان اول القائلين بامامة محمد بن علي بن ابي طالب المعروفة باسم الحنفية^(٥) وانه مفوض من قبله للقيام بحركته^(٦) . وقد بلغ من تشيع اهل الكوفة لآل علي انهم كانوا يؤمنون بكل حديث ما دام قد جاء على السنة الائمة من آل علي «^(٧)» .

وهكذا فقد استغل المختار النواحي الاقتصادية والاجتماعية والدينية لتركيز

-
- ١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٦ ص ٤٤ .
 - ٢ - المصدر السابق : ج ٦ ص ٤٥ .
 - ٣ - المصدر السابق ج ٦ ص ٤٤ .
 - ٤ - المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨٠ .
 - ٥ - النوبختي : « فرق الشيعة » ص ٢٠ والمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠١ .
 - ٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٨٠ (يقول المختار : إن المهدي ابن الوصي محمد بن علي بعثني اليكم امينا ووزيرا ومنتخبا واميرا » . والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠ .
 - ٧ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٨ .

ميول الجماهير وتوجيهها نحو غايته . وكان من نتائج ثورة المختار انه قتل في معركة القصر بالكوفة في رمضان سنة ٦٧ هـ على يد مصعب بن الزبير الذي تتبع الشيعة بالقتل بالكوفة وغيرها^(١) . ولكن اهمية حركة المختار تكمن في انها من اهم الحركات الشيعية وذلك لانها كانت السبب في قيام فرقة الكيسانية التي تعتبر من اوائل الفرق الشيعية التي ظهرت على مسرح الاحداث في القرن الاول الهجري .

فاول وجوه اقتران الكيسانية بحركة المختار ما شاع في المصادر من ان الكيسانية هم اصحاب المختار الثقفي او اتباعه^(٢) ثم التباس مدلول لفظة الكيسانية بمدلول لفظة المختارية « فسموا الكيسانية وهم المختارية »^(٣) وتعتبر الكيسانية اول فرقة طورت بالتفصيل فكرة المهدي المنتظر وكانت احد المراكز الاساسية التي تفرعت عنها فرق القلو .^(٤)

ولكن فرق الشيعة لم تبق على مبادئها موحدة ، بل انقسمت خاصة بعد وفاة محمد بن الحنفية بالمدينة في المحرم سنة احدى وثمانين للهجرة^(٥) وبعد وفاة ابنه عبيد الله بن محمد الملقب بابي هاشم^(٦) دون عقب الى فرق عديدة . فقد وجدت الكيسانية نفسها منذ العقد الاخير من القرن الاول الهجري امام ولايات شيعية كثيرة آخذة في الظهور وكان محورها عدد غير قليل من الرجال البارزين في العلم والمكانة القادرين على استقطاب الناس وقيادتهم بطرق مختلفة والذين اخذوا يظهرهم في صفوف بني هاشم .

وكان اولهم بعد ابي هاشم مباشرة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الذي اوصى اليه ابي هاشم بالامامة ثم محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المعروف بالباقر واخوه زيد وابراهيم بن محمد ابن علي الملقب بالامام وعبد الله بن

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٤ والطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١١٦

٢ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٧ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٠

٣ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٤

٤ - وداد القاضي : الكيسانية في التاريخ والادب ص ١٢٨ .

٥ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٤ .

٦ - المصدر السابق : ص ٢٨

معاوية بن جعفر بن ابي طالب ثم تلاهم بعد فترة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن ابي طالب الملقب بالنفس الذكية واخوه ابراهيم بن عبد الله وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق^(١) . . وهكذا فقد انقسم الشيعة جماعات اتخذت كل جماعة الرجل الذي تؤثره اماماً لها فكان من نتائج هذا الامر نشوء الفرق العديدة التي اختلفت في تعيين الائمة وفي المبادئ والتعاليم .

وقد اعتمدت معظم كتب الفرق التدرج التاريخي القائم على مبدأ كيفية سوق الامامة اساساً في تقسيم فرق الشيعة . فابو محمد بن موسى النوبختي اعتمد التدرج التاريخي في كتابه « فرق الشيعة » اساساً في تقسيم فرق الشيعة ، فتتبع نشوء الفرق المتعددة تبعاً لولاءاتها للائمة المختلفين حسب تسلسلهم الزمني . بينما نرى الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » وكذلك عبد القادر البغدادي في كتاب « الفرق بين الفرق » يقسمان الشيعة الى ثلاث فرق : كيسانية وزيدية وامامية^(٢) ولكن ابا الحسن الاشعري في كتابه « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » اتخذ من موضوع الامامة نفسها مبدأ في تقسيم فرق الشيعة وموقف تلك الفرق من حق علي بالامامة وموقفها بالتالي ممن تقدموا علياً في الخلافة . لذلك فقد قسم الشيعة ثلاثة اصناف : غاليه وزيديه ورافضة . وقد افرد الصنف الاول من الشيعة وهم الغالية في بدء حديثه عن الشيعة فذكر « انهم غلوا في علي وقالوا فيه قولاً عظيماً وهم خمس عشرة فرقة »^(٣) فمن الفرق الغالية الكربية وهي احدى الفرق التي تشعبت عن الكيسانية ادعى حمزة بن عمار البربري النبوة وان محمد بن الحنفية هو الله عز وجل^(٤) كذلك فبيان النهدي ادعى بان ابا هاشم نبأه هو وان دليل ذلك في القرآن في قوله عز وجل « هذا بيان لله وهدي » وقد ادعى بيان بعد وفاة ابي هاشم النبوة لنفسه^(٥) واما اصحاب عبد الله بن معاوية « فقد غلوا فيه وقالوا ان الله عز وجل

- ١ - النوبختي : فرق الشيعة : ص ٢٩ - ٣٠ - ٥٢ - ٤٢ - ٢٩ - ٥٣ - ٥٤ .
- ٢ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٥ (وفي موضع اخر (ص ٢٣٥) بعدها خمس فرق مضيها عليها العلاء والاسماعيلية) .
- ٣ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٦ .
- ٤ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٥ .
- ٥ - المصدر السابق : ص ٣٠ والاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٦ .

نور وهو في عبد الله بن معاوية «^(١) .

« وكان بدء الغلو في القول في فرق الخرمينية » فقد قالوا ان الائمة آلهة وانهم انبياء وانهم رسل وانهم ملائكة وتكلموا بالاظلة وفي التناسخ في الارواح . . . «^(٢) وهكذا فقد دخلت الكثير من الآراء الغالية في الفرق المتعددة التي تفرعت عن الشيعة الاوائل حتى افراط بعض الغلاة فيما وضعوه من آراء ونظريات تدور على اصول التشيع وترجع هذه الآراء الى اسباب وظروف فرضتها الاحداث ذلك « ان الغلاة وجدوا في ظروف خاصة وان كثيراً منهم اتخذوا حب آل البيت ستاراً يخفون وراءه كل ما شاءت اهواءهم «^(٣) كذلك رغبة منهم في تمكين مكانتهم لدى اصحابهم .

اما الفرقة الثانية من فرق الشيعة فهي الزيدية وترجع نشأتها الى زمن هشام بن عبد الملك بن مروان حين ثار زيد بن علي بن الحسن ضد الامويين وكان شعاره عندما بايعه اهل الكوفة « التمسك بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين اهله بالسواء ، ورد الظالمين ، واقفال المجرم ونصرنا اهل البيت على من نصب لنا لنا وجهل حقنا «^(٤) فالملحوظ في هذا الشعار التركيز من جانب زيد بن علي على العوامل الاجتماعية والمادية الى جانب العوامل الدينية وجعلها اساساً لثورته ضد الامويين . فقد اتخذ من الدفاع عن المستضعفين والمحرومين هدفاً رئيسياً من اهداف حركته وذلك ضد الظالمين من بني امية . وهنا يمكننا ملاحظة القاسم المشترك بين شعار حركته وشعار حركة المختار واهمية العوامل الاجتماعية والاقتصادية في كلتا الحركتين . وقد كان لحركة زيد بن علي وثورته على الامويين هدفاً سياسياً الى جانب مطالبته بالحق وهذا ما يذكره هشام بن عبد الملك لزيد بن علي « بأنه كان يرغب في

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٣٢

٢ - المصدر السابق ص ٣٥ والاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٧ (وقد دعى هذه الفرقة بالجناحية) .

٣ - احمد امين : فجر الاسلام ص ٢٧٦ .

٤ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٢

الخلافة ويتمناها»^(١) وقد كانت الشيعة بدورها تطالب زيدا بالخروج للثأر من بني امية^(٢) ولكن زيدا لم يستطع ان يجمع حول الشيعة كلها لانه كان معتدلاً في تشييعه اعتدالاً لا يرضى الغلاة فقد «كان زيد بن علي يفضل علياً بن ابي طالب على سائر اصحاب رسول الله (ﷺ) ويتولى ابا بكر وعمر ويرى الخروج على ائمة الجور»^(٣) . وكان لزيد بعض الآراء على مذهب الاعتزال فكان يقول « بجواز امامة المفضول مع قيام الافضل »^(٤) وهذا ما لا يرضى عنه الكثير من غلاة الشيعة . وهكذا فقد فشلت الحركة التي قام بها زيد بن علي وانتهى امره بان صلبه يوسف بن عمر الثقفي ثم احرقه سنة ١٢٢ هـ .^(٥)

ومع ان هذه الثورة قد انتهت الى نهاية مأساوية ، فانها كانت ثورة لها شأنها . فقد كانت السبب في قيام فرقة الزيدية^(٦) احدى اكبر الفرق الشيعية . كذلك فان ثورات شيعية اخرى اعقبتها وامام هذه الثورات سقطت دولة بني امية .

فمن اشهر الثورات بعد حركة زيد بن علي كانت ثورة ابنه يحيى بن زيد بن علي على الامويين والتي انتهت بقتله وحمل رأسه الى الوليد^(٧) كذلك تلتها ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بالكوفة سنة ١٢٧ هـ وقد حاربه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ابن مروان وهزمه فلجأ الى الجبال^(٨) .

اما الفرقة الثالثة من فرق الشيعة فهي الرافضة او الامامية وهو الصنف الذي يجمعها رفضهم امامة ابي بكر وعمر والقول بنص النبي (ﷺ) على استخلاف علي

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ج ٧ ص ١٦٥ .

٢ - المصدر السابق : ج ٧ ص ١٦٦

٣ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٣٧

٤ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢٥٠ (فقد تلمذ زيد بن علي على يد واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة) .

٥ - لمسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٢ .

٦ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٣ (سديت الزيدية بهذا الاسم وان ذلك بخروجهم مع زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب) .

٧ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٨٥

٨ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣٠٢ - ٣٠٣

باسمه^(١) وقد افرقت الامامية اربع وعشرون فرقة كما عدّها الاشعري^(٢) بينما هي عند البغدادى خمس عشرة فرقة^(٣) واهم فرقهم « الاثنا عشرية الذين ساقوا الامامة من جعفر الصادق الى ابنه موسى وقطعوا بموت موسى وزعموا ان الامام المنتظر هو الثاني عشر من نسبه الى علي بن ابي طالب^(٤) » .

ولكن مهما تنوعت هذه الفرق واختلفت في التفاصيل فهناك نقطة التقاء مشتركة تجمع بينها وهي قضية الامامة التي يدور حولها كلام الشيعة على اختلاف فرقهم واليها ترجع اكثر المسائل الفرعية فهم مجمعون على « ان الامامة ليست محضية مصلحة تناط باختيار العامة وبتنصيب الامام بنصبهم ، بل هي قضية اصولية وهي ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام اغفاله واهماله ولا تفويضه الى العامة وارساله^(٥) وعلى هذا ظل الشيعة في نضال مستمر ضد الدولة الاموية ثم الدولة العباسية وقد قتل الكثير من ائمتهم على يد الدولة الحاكمة^(٦) » .

١ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٨٩ والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٥

٢ - المصدر السابق : ج ١ ص ٨٨

٣ - البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٨

٤ - المصدر السابق : ص ٤٧ .

٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٥ وابن خلدون : المقدمة ص ٣٤٨ مع تغيير في اللفظ .

٦ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٥٠ - ١٦٦ (ذكر من خرج من اهل البيت) .

الخوارج

يقول بعض مؤرخي الفرق : « ان كل من خرج على الامام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى « خارجياً » سواء كان الخروج في ايام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو على كان بعدهم على التابعين، أو على الأئمة في كل زمان^(١) » وعلى هذا التعريف يكون تسميتهم بالخوارج لقب ذم لهم ويكون سبب تسميتهم بهذا الاسم من قبل مخالفهم وذلك « لخروجهم على علي بن أبي طالب »^(٢) أي عن الجماعة وقد تكون تسميتهم بالخوارج مأخوذة من قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »^(٣) وعلى هذا تكون تلك التسمية لقب مدح لازم وتكون منهم لا من مخالفهم .

وكما عرف الخوارج بهذا اللقب عرفوا باسم (الحرورية) و(الشرأة) و(المارقة) و(المحكمة) . اما انهم لقبوا (بالحرورية) فلانهم بعد ان رجع علي بن ابي طالب من صفين الى الكوفة انحازوا الى حروراء^(٤) . واما انهم لقبوا بالشرأة « فلأنهم كانوا يقولون اشرينا انفسنا في طاعة الله اي بعناها بالجنة »^(٥) ويظهر انهم اخذوا هذا المعنى من قوله تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ .

٢ - الأشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧ .

٣ - القرآن الكريم : سورة النساء آية ١٠٠ .

٤ - الأشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧ والبغدادى : الفرق بين الفرق ص ٥٧ .

٥ - المصدر السابق : ج ١ ص ٢٠٧ .

الله .^(١) واما تسميتهم (بالمارقة) بمعنى انهم مارقون من الدين كما يرق السهم من الرمية فانهم لا يرضونها^(٢) .

واما المحكمة فانهم لقبوا بها لانهم كانوا يقولون : « لا حكم الا لله »^(٣) . وقد انفرد بهذه التسمية اوائلهم الذين انكروا على علي التحكيم . ولكن لفظة الخوارج هي الاشهر » والخوارج كلمة عربية مفردة خارجي ، هم اتباع اقدم الفرق الاسلامية^(٤) . ففرقة الخوارج جاءت نتيجة انشقاق ديني حدث في الجماعة الاسلامية اثر موقعة صفين . ذلك ان جماعة من المسلمين من اصحاب علي احتجوا على فكرة وقف القتال في صفين وانكروا على علي موافقته على التحكيم بعد ان رأوا انه لم يوقف القتال بين المسلمين وانكر بعضهم على لجنة التحكيم صلاحيتها في النظر في خلاف علي ومعوية « وقالوا لا حكم الا لله »^(٥) . فالخوارج الذين خرجوا على علي وانشقوا عليه كانوا بالامس من حزبه واعوانه وكانوا يعتقدون ان عليا امام بويع بيعة صحيحة ، فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان عليه ان يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس . وهم يعبرون عن موقفهم من التحكيم ونقمتهم على امير المؤمنين علي بن ابي طالب بقولهم لعبد الله بن عباس « قد حكمتم في امر الله الرجال ، وقد امضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه ان يُقتلوا او يرجعوا ، وقبل ذلك ما دعوناهم الى كتاب الله عز وجل فابوه ، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا ، وجعلتم بينكم وبينه المودعة والاستفاضة ، وقد قطع عز وجل الاستفاضة والمودعة بين المسلمين واهل الحرب منذ نزلت براءة ، الا من اقر بالجزية »^(٦) وقالوا ايضا « قد كان للمؤمنين امير فلما حكم في دين الله خرج عن الايمان ، فليتبع بعد اقراره بالكفر »^(٧) .

١ - القرآن الكريم : سورة البقرة اية ٢٧ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٧ والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٣ .

٣ - المصدر السابق : ج ١ ص ٢٠٧ .

٤ - دائرة المعارف الاسلامية ج ٨ ص ٤٦٩ مادة خوارج .

٥ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٥ والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٢ .

٦ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٥ .

٧ - المبرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١٠٦ .

وقد يعجب المرء ان يأخذ الخوارج على هذا الموقف من التحكيم ، لانهم هم الذين دفعوه الى اتخاذه ، ثم طالبوه بعد ذلك بالعودة عن الامر^(١) ، وهو لم يكن ليفعله وهو الحاكم فيتذكر لما سبق ان وافق عليه . فهم يخاطبون عليا بقولهم : « تب عن خطيئتك ، وارجع عن قضيتك واخرج بنا الى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا . قال علي : قد اردتكم على ذلك فعصيتُموني ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا وشرطنا شروطاً واعطينا عليها عهدونا وموآثيقنا »^(٢) .

هذا امر الخوارج قبل معرفتهم نهاية التحكيم ، اما بعد التحكيم ورجوع علي من صفين فانهم تجمعوا في اثني عشر الفاً تحت زعامة عبد الله بن الكواء اليشكري وشبث بن ربعي التميمي فلم يدخلوا معه الكوفة بل اتوا حروراء^(٣) . ثم ان الخوارج ذهبوا الى النهر وان بعد ان بايعوا « عبد الله بن وهب الراسبي » بالامامة . ولكن كثير منهم فارقه عندما قرب الامر في محاربة علي^(٤) . ثم كانت معركة بينهم وبين علي سنة ٣٨ هـ فقتل الكثير من الخوارج ولم يبق منهم الا تسعة رجال ذهب رجلان منهم الى عمان ومن اتباعها خوارج عمان وذهب اثنان الى اليمن ومن اتباعها اباضية اليمن واثنان الى سجستان ومن اتباعها خوارج سجستان واثنان الى الجزيرة ومن اتباعها خوارج الجزيرة وخرج رجل منهم الى « تل موزن »^(٥) .

وهكذا فالمصادر التاريخية تعتبر ان الباعث الاول لنشأة الخوارج كانت موافقة علي على التحكيم وذلك لانهم رأوا ان الفصل في موضوع الخلافة لا يصح ان يوكل الى البشر بل ينبغي الاحتكام فيه الى الحرب والكفاح ولكن هذا السبب المباشر لنشأة الخوارج يعد من اوهى الاسباب ، ذلك ان نزعة الخروج كانت كامنة في نفوس المسلمين بسبب ما آل اليه امر الخلافة على عهد عثمان ، وما انتهى اليه امر الجماعة الاسلامية بعد مقتله من تفرق الامة الى فريقين متعارضين متحاربين ، لا لسبب من

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٧٢ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٦٩ .

٣ - المصدر السابق : ج ٥ ص ٦٣ .

٤ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٠ والميرد : الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١١٧ .

٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٧ .

اسباب الدين بل لاسباب الدنيا اي الحكم ومغائنه والتطلع الى مراكز الرياسة والسيطرة ، مما كان في الواقع خيانة لجوهر الاسلام بوصفه دنيا وعقيدة^(١) وهكذا أثرت فئة من المسلمين الثورة على الاوضاع السائدة . وهكذا كان لثورة الخوارج على علي بالاضافة الى الاسباب الدينية اسبابا سياسية . فهم وان كانوا قد اثاروا المسألة من ناحية دينية اي انهم خطأوا عليا لقبوله بالتحكيم بينه وبين معاوية بن ابي سفيان وجعلوا هذا الخطأ كفراً^(٢) وصبغوا الامر صبغة دينية تتراوح بين الكفر والايان ولكن هناك صلة وثيقة بين العوامل السياسية التي خلقت هذه الفرقة وبين افكارها وما بشرت بها من تعاليم . فالخوارج هي من اقدم الفرق والمذاهب التي ادجت فيه الافكار الدينية في الخلافات السياسية .

ففي نظرية الخلافة او الامامة عند الخوارج او « الجمهوريون » كما يسميهم فان فلوتن^(٣) نرى انهم اجازوا ان يكون الخليفة من غير القرشيين ما دام يحقق العدل بين الناس ويجتنب الجور ، واذا وجد امام حقق مصالح الناس بالعدل وخرج عليه واحد وجب قتاله . واذا غير الامام سيرته وعدل عن الحق وجب عزله او قتله ، وانه يجوز ان لا يكون في العالم امام اذا امكن ان يسير الناس امورهم بالعدل وعدم الجور ، ولا مانع اذا حقق الامام العدل بين الناس ان يكون عبداً او حراً ، قرشياً او غير قرشي^(٤) .

فالملاحظ ان الخوارج ارادت من تفسيرها للدين المحافظة على منزلتها محافظة تامة اذ ان الخوارج لم يكونوا من قریش ولا ثقیف ولا الانصار بل كانوا من قبائل اقل اهمية من حيث المكانة السياسية اندمجت في الاسلام خصوصاً بعد فتوح عمر واقامت في الكوفة والبصرة وكانت تغلب على اكثرهم البداوة . فكثرة قبائل الخوارج من « اعاريب بكر وتميم »^(٥) .

١ - فلها وزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية ص ٢٩ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٦٧ .

٣ - فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٧٠ .

٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

٥ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٦ .

وعلى هذا فان الخوارج جسدت في ارائها حول الخلافة الثورة على الارستقراطية المتمثلة في قريش عامة لحصرها مركز الخلافة بنفسها دون سائر القبائل وعلى الامويين خاصة « فالخوارج جسدت في فكرها الرافض السياسي لتجميع السلطة في ايدي الامويين »^(١) لذلك فتاريخ الخوارج كان عبارة عن ثورات متعددة ضد بني امية التي تتركز فيها عصبية قريش .

كذلك فتورة الخوارج على علي كانت لها بالاضافة الى العوامل الدينية والسياسية اسبابا اقتصادية واجتماعية . « ذلك ان الخوارج وهم من المقاتلين رفضوا مركزية الحكم وارادوا الاستئثار بالاراضي التي فتحوها والاستفادة منها ، كما ارادوا ان يحافظوا على منزلتهم كطبقة من المقاتلين تستثنى من بين افرادها جميع الطبقات الاخرى . . لذلك شجبت الاختلاط مع سائر فئات الامة الاخرى حتى يتسنى لها الحفاظ على مكاسبها الاقتصادية التي تنجم عن الغزو المستمر »^(٢) .

وقد دخلت في تكوين الخوارج عدة عوامل منها « دخول بعض الموالي في عقيدة الخوارج ولعل السبب في دخولهم انهم اشتركوا مع الخوارج في بغض الامويين واعتقادهم بعدم صلاحيتهم ووجوب الخروج عليهم حتى تزول دولتهم »^(٣) . وقد رغب الموالي في مذهب الخوارج القائم على المساواة بين المسلمين الذي تمثله الآية الكريمة « انما المؤمنون اخوة » ، فبينما كانت كل قبيلة تفتخر بشرف اصلها وتجعله عنوانا للقوة كانت الخوارج تقول :

دعى القوم ينصر مدعيه ليلحقه بذى الحسب الصميم
ابى الاسلام لا اب لي سواه اذا افتخروا بقيس او تميم^(٤)
فدعوة الخوارج الى المساواة والاخوة جعلت الموالي يجدون في مذهبهم تحقيقاً

١ - طريف خايدى. دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٤ .

٢ - المصدر السابق ص ٢٥ - ٢٧ .

٣ - احمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٣٢ .

٤ - الميرد : الكامل في الادب واللغة ج ٢ ص ١١٦ والشعر لنهار بن موسى بن بكرى .

لامالهم وطموحاتهم . وترجع دعوة الخوارج للمساواة والاخوة الى انهم كانوا من بين جماعة العمال اكثر مما هم من بين طائفة الموسرين^(١) .

وهكذا تضافرت العوامل الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في تكوين الخوارج .

وقد بدأ الخوارج نضالهم ضد نظام الحكم عقب صفين وخرجوا على علي في النهروان وفي اماكن متعددة^(٢) . وكانت نتائج ثوراتهم تنتهي دائماً بالهزيمة مما زاد في امعان الخوارج على كره علي حتى دبروا له مكيدة قتله فكان « ان قتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي وقد كان زوجاً لامرأة قتل كثير من افراد اسرتها في وقعة النهروان »^(٣) .

وقد ظل الخوارج شوكة في جانب الدولة الاموية طوال حكم خلفاء معاوية والى مروان بن الحكم يرجع الفضل في القضاء عليهم^(٤) .

ولم تبق الخوارج فرقة واحدة وعلى رأي واحد بل سرعان ما انقسموا الى فرق كثيرة لم يتفق المؤرخون على عددهم ولكن اتفقوا جميعاً على انهم لا يقلون عن عشرين فرقة بعضهم اصول وبعضهم فروع . اما الاصول فهم على ما ذهب اليه الشهرستاني^(٥) « المحكمة الاولى ، الازارقة - النجدات ، الصفريه ، العجاردة والثعالبة والباقون فروعهم . اما عند الاشعري فهم الازارقة والنجدية ، والاباضية ، والصفريه^(٦) .

١ - دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ص ٩٤ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٢ والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٦١ .

٣ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٩٥ .

٤ - دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثامن ص ٤٧١ وما بعدها (حروب الخوارج في العصر الاموي) .

٥ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٧٢ .

٦ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٨٣ .

وقد عددها البغدادي عشرون فرقة (الفرق بين الفرق ص ٥٤) وهي اربعة أضرب عند ابن عبد ربه (العقد الفريد مجلد ٢ ص ٣٩١) (الازارقة - البيهسيه ، الاباضية ، الصفريه) .

وقد تفرعت اصول فرق الخوارج الى فروع كثيرة تبلغ الثلاثين واكثر عند الاشعري^(١) . والحق انه لا يمكن معرفة عدد فرق الخوارج ولا ضبطها لان الخلافات كانت توجد بينهم على اقل شيء^(٢) ومن هنا كانت لفظة الخوارج تصح ان تكون وصفاً لكل فرقة بل تشبه ان تكون دستوراً لهم وهو ما يظهره انقسامهم الى فرق متعددة .

ولكن يجمع الخوارج على اختلاف فرقهم وافتراق مذاهبهم « اكفار علي وعثمان والحكمين واصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكمين والاكفار بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الامام الجائر »^(٣) .

ولكن فرقهم وتحديد اصول الفرق تختلف في اراء وعقائد كثيرة .

فلازارقه وهم من اوائل فرق الخوارج « اتباع نافع بن الازرق الحنفي المكنى بابي راشد فلم تكن للخوارج فرقه اكثر عدداً ولا اشد فهم شوكة »^(٤) وهم يقولون « ان عليا عليه السلام كافر »^(٥) .

ومن ارائهم اباحة قتل الاطفال المخالفين ، وان اطفال المشركين في النار مع ابائهم ومنها ان التقية لا تجوز مطلقاً لا بالقول ولا بالعمل . ومنها تكفيرهم من ارتكب كبيرة من الكبائر ويكون مخلداً في النار مع الكفار^(٦) .

١ - الفروع بناء على ما ذهب اليه ابو الحسن الاشعري فهم : العطوية ، الفديكية ، والعجاردة ومنها : « الميمونية - الخلفية - الخمرية - الشيعية - الحازمية - المعلومية - المجهولية - الصلتية - الثعالبة - الاخنسية - المعبد - الشيبانية - الرشيدية - المكرمية » ومن الاباضية : « الحفصية ، اليزيدية ، الحارثية ، الواقفية ، الضحاكية) ومن البيهسية (العوفية واتباع شبيب النجراني واصحاب التفسير) كذلك اصحاب صالح ، الحسينية ، الراجعة والشيبية (.

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩٠ (خبر « عبد الجبار » الذي خطب الى ثعلبة ابنته ثم شك في بلوغها ، فسأل امها عن ذلك ، حتى وقع الخلاف بين ثعلبة وعبد الكريم بن عجرد في الاطفال ، فاختلغا بعد ان كانا متفقين) .

٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٥٥ والشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٧٢ .

٤ - المصدر السابق ص ٦٢ .

٥ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٨٣ .

٦ - المصدر السابق : الملك والنحل ج ١ ص ١٨٦ - ١٧٠ .

ان من ينظر في آراء تلك الطائفة من الخوارج يرى أنهم لم يكونوا يعرفون الأمر الوسط بين الايمان والكفر ولكن الانسان أما كافر وأما مؤمن وان الايمان قول وعمل وأنه أمر كلي لا يتجزأ ، فمن حقق الايمان بجميع أقواله وأفعاله فهو مؤمن والأ فهو كافر وإن مبدأ من اخطأ من المسلمين فقد كفر كان سبباً مهماً في نشأة الفرق الكلامية ذلك أن أصل نشأة المعتزلة يرجع الى الحكم على مرتكب الكبيرة هل هو كافر أم مؤمن ؟ حتى افتى واصل بن عطاء في هذا بانه في منزلة بين المنزلتين (أي أنه لا كافر مطلقاً ولا مؤمن مطلقاً) وانما هو فاسق . كذلك فقد نشأت عن مبدأ الكفر والإيمان الفرقة التي ترى أن مرتكب الكبيرة يرجى امره الى الله وهي فرقه المرجئة . فهذا القول بكفر من اخطأ من المسلمين وهو رأي الخوارج الاوائل يمكن ان يكون السبب في نشأة الفرق الكلامية الاسلامية .

وقد تطورت آراء الفرق التي ندرت عن الخوارج الاوائل حتى اننا نرى ان متأخري الخوارج كانوا أكثر تساهلاً مع مخالفيهم من متقدميهم ولا ندري هل سبب هذا التساهل والتسامح هو اتساع مداركهم عن سلفهم الذين كانوا من عرب البادية وفيهم السذاجة وعدم عمق التفكير ، ام ان كثرة الحروب التي انهمكهم قد جعلتهم يأترون التقرب من مخالفيهم عن طريق التخفيف من آرائهم المتشددة .

وان ما نلاحظه من آراء الصفرية وهي من فرقهم المتقدمة ما يؤكد هذا الرأي فهم اكثر تسامحاً من غيرهم » فالصفرية أصحاب زياد بن الاصفر خالفوا الازارقة والنجيدات والاباضية في امور منها انهم لم يكفروا القعدة عن القتال ، ولم يسقطو الرجم . ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم وتخليد هم وقالوا ان التقية جائزة في القول دون العمل « (١) .

وبعد استعراضنا المفضل لتاريخ الخوارج وفرقهم وآرائهم يمكننا ان نحكم على تلك الفرقة من المسلمين والتي تفرعت الى فرق كثيرة ان ادراكها للتعاليم الدينية كان إدراكاً سطحياً وإنهم كانوا يخلصون لهذه التعاليم على حسب فهمهم لها وان

١ - الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ٢١٧ .

اخلاصهم لعقائدهم الدينية ، جعلهم ينكرون على كل من يخالف امراً من امور الدين بحسب فهم وادراكهم وفضلاً عن ان هذه الفئة « ارادت من تفسيرها للدين المحافظة على منزلتها محافظة تامة . . وفي سبيل ذلك اباحت ما حرمته الفئات الاسلامية الاخرى وفسرت الدين لا عقلايا »^(٢) .

٢ - طريف الخالدي : دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ص ٢٧ .

المرجئة

كان للاوضاع السياسية التي سادت الدولة الاسلامية في صدر الاسلام وبداية الحكم الاموي الاثر الكبير في نشأة الخوارج والشيعة اللذين كانا في اول امرهما حزينين سياسيين تكونا حول موضوع الخلافة . كذلك فقد ادت تلك الاوضاع الى قيام حزب سياسي محاييد هو « المرجئة » . ويظهر ان هذه الفئة لم تتكون كمذهب الا بعد التحكيم وحتى ذلك الحين ظلت عبارة عن نزعة غير واضحة المنهج والتفكير . فنشأة المرجئة كما يؤرخ لها ترجع الى انه « لما قتل علي عليه السلام ، التقت الفرقة التي كانت معه ، والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير ، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن ابي سفيان ، الا القليل فهم من شيعته ومن قال بامامته بعد النبي صلى الله عليه وآله وهم السواد الاعظم واهل الحشو واتباع الملوك واعوان كل من غلب اعني الذين التقوا مع معاوية فسموا جميعاً « المرجئة »^(١) .

فقد نشأت هذه الفئة من المسلمين على اثر استفحال الانشقاق في صفوف المسلمين . فقد قام الخوارج وراحوا يكفرون عليا وعثمان والقائلين بالتحكيم ، كذلك كان من الشيعة من كفروا بابكر وعمر وعثمان ومن ناصرهم وكلاهما يكفر الامويين ، ثم جاء الزبيريون وراحت كل فئة تكفر الاخرى وتدعي انها على حق ، فاصيب نفر من المسلمين بخيبة امل أليمة ، وكانما صارت افكارهم في الموقف الذي ينبغي اتخاذه على الصعيد السياسي فضلوا الحياد ، ورأوا في الاحزاب المتطاحنة ابناء امة واحدة هي امة الاسلام لذلك فقد أثرت هذه الفئة موقفاً وسطاً وارجأت الحكم

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ .

على الفرقاء المتخاصمين الى الله فقد « توالوا المختلفين جميعاً وزعموا ان اهل القبلة كلهم مؤمنون باقرارهم الظاهر بالإيمان ورجوا لهم جميعاً المغفرة »^(١) .

وهكذا كان موقف المرجئة من الناحية السياسية موقفاً حيادياً متسامحاً .

وقد تكون فكرة الارجاء قد نشأت مبكرة في عصر الصحابة . ففي حديث عن الرسول (ﷺ) يصور فكرة الحياد في ايام الفتن فيقول : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد ملجأ او معاذاً فليعذبه »^(٢) ومن الطبيعي ان يؤدي هذا النوع من التفكير الى تسامح كبير في الحقل العقائدي اجمالاً . فهذه النزعة الى عدم الدخول في الحروب التي بين المسلمين هي الاساس التي بني عليه مذهب الارجاء .

اما لفظة « مرجئة » فهناك خلاف حول اشتقاقها من حيث المعنى ان لم يكن من حيث اللفظ . ومن المتفق عليه اجمالاً ان « المرجئة » من ارجأ ومعناها أخر الامر واجل البت فيه فيكونون قد دعوا كذلك لانهم فضلوا عدم اتخاذ موقف صريح ازاء المذاهب المتضاربة فأرجأ الى العالم الآخر قضية الحكم في الخلافات^(٣) فهم من هذا القبيل يلتقون والخوارج (لا حكم الا الله) وقد تعني « ارجأ » بعث الرجاء^(٤) . والمسلمون آنذاك بحاجة الى مثل هذا البعث .

كذلك فبعض المستشرقين يرون في نشأة المرجئة « ان فريقاً كبيراً من المسلمين الورعين قد اكتفى بالاستسلام السلبي وحل القضايا الراهنة حلاً اكثر ملاءمة

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ .

٢ - صحيح البخاري ج ٩ ص ٦٤ .

٣ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٣ (الارجاء هو التأخير اي تأخير صاحب الكبيرة الى القيامة ، فلا يقضي عليه بحكم ما في الدنيا مع كونه من اهل الجنة او من اهل النار) (وقيل الارجاء تأخير علي عليه السلام من الدرجة الاولى الى الدرجة الرابعة) .

٤ - المصدر السابق : ج ١ ص ٢٢٣ (كان المرجئة يقولون : لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة) .

لضرورات الواقع . وهذا الفريق كان يسند النظرية « ان كل شيء متوقف على الايمان » فاذا كان الايمان قائماً لم يضر العمل واذا كان المرء غير مؤمن لم ينفعه العمل «^(١) .

ونتيجة للصلة الوثيقة بين نشأة « المرجئة » والعوامل السياسية التي ادت الى قيامها كان اهم ما بحث فيه المرجئة من اراء وتعاليم تحديد « الايمان » و « الكفر » و « المؤمن » و « الكافر » فكثير من المرجئة كانوا يرون ان الايمان هو المعرفة بالله والخضوع له والاقرار والمعرفة برسله والمحبة له بالقلب والاقرار به^(٢) وقد اخروا العمل عن الايمان^(٣) وهم بذلك يخالفون الخوارج الذين جعلوا الاعمال جزءاً من الايمان والمرجئة تخالف الخوارج في الحكم على مرتكب الكبيرة « فقد جعلوا مرتكبي الكبائر من اهل الصلاة العارفين بالله وبرسله المقربين به وبرسله مؤمنين بما معهم من الايمان فاسقين بما معهم من الفسق »^(٤) بينما رأَت الخوارج مرتكب الكبيرة كافراً . وقد غلبا بعض المرجئة في تحديد الايمان « فجعلوا الايمان يكون بالقلب دون غيره من الجوارح »^(٥) .

كذلك فقد رد المرجئة على غلاة الشيعة الذين عدوا الاعتقاد بالامامة ركناً اساسياً من اركان الدين بينما قالت المرجئة « ان الامامة يستحقها كل من قام بها اذا كان عالماً بالكتاب والسنة وانه لا يثبت الامامة الا باجماع الامة كلها »^(٦) .

ومن التعاليم التي نادى بها اكثر المرجئة « عدم تكفير احد من المتأولين وهم لا يكفرون الا من اجمعت الامة على اكفاره »^(٧) .

١ - جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٧٥ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلامية ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ .

٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

٤ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٩ .

٥ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١٤ (وهو رأي فرقة الجهمية) .

٦ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٩ .

٧ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٧١ .

فجملة هذه الاراء تتفق ورأي المرجئة السياسي ، فهم لا يحكمون على الامويين ولا على الخوارج والشيعة بالكفر بل انهم يتركون امرهم جميعاً الى الله . ولم تبق المرجئة على رأي واحد بل اختلفوا في تحديد « الايمان » فرقاً متعددة تفاوت عددها عند مؤرخي الفرق . فالشهرستاني قسم المرجئة « اربعة فرق هي : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة »^(١) . والنوبختي يعدها اربع فرق فيدعوها « الجهمية ، الغيلانية ، الماصرية ، والحشوية »^(٢) وهي من الفرق التي عدها الاشعري والتي بلغت عنده اثنتي عشرة فرقة^(٣) .

اما البغدادي « فيعدها ثلاثة اصناف : صنف منهم قالوا بالارجاء في الايمان وما يقدر على مذاهب القدرية والمعتزلة . . . وصنف منهم قالوا بالارجاء بالايمان وبالخير في الاعمال على مذهب جهم بن صفوان فهم من جملة الجهمية والصنف الثالث خارجون عن الخبر والقدرية »^(٤) .

« وقد لعبت المرجئة دوراً هاماً في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الاحزاب والطوائف وحلت مشكلة اجتماعية جديدة في الدولة الاموية وهي موقف العرب من المسلمين الجدد فقد ذهب المرجئة الى القول بانه لا يحل للحكومة ان تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم بعد ان اصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم »^(٥) .

وهكذا فنتيجة لهذه الاراء والافكار التي قالت بها المرجئة لم نر الامويون

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٣ .

٢ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٦ - ٧ (فالجهمية مرجئة اهل خراسان ، والغيلانية مرجئة اهل الشام والماصرية مرجئة اهل العراق) .

٣ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢١٤ .

٤ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٩٠ .

٥ - فان فلوتن : السيادة العربية الشيعة والاسرائيليات ص ٦٥ .

اضطهدوا مرجئاً لارجائه كما كانوا يضطهدون المعتزلة لاعتزالهم والخوارج لخارجيتهم
والشيعة لتشيعهم بل نراهم كانوا يستعملون من عرف بالارجاء في اعمالهم كما فعل
يزيد بن المهلب بن ابي صفرة بثابت قطنه وهو شاعر المرجئة فقد ولاه اعمالاً من اعمال
الشغور^(١) .

فقد وجد الامويون في تعاليم المرجئة ما يساعدهم على فرض سلطانهم على
المسلمين لان الحساب مرجأ الى الآخرة ، ولا داعي الى فتحه منذ هذا العالم وهذا
يعني ان من الافضل التسليم بواقع الخلافة كما فرضه الأمويون بغض النظر عن
شرعيته او عدمها ، على ان يترك لله امر الثواب والعقاب .

١ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغانى مجلد ١٣ ص ٩٠ (وله قصيدة تبرز اهم تعاليم المرجئة ص ٩٥) .

المعتزلة

تشير المصادر التاريخية القديمة وكتب الفرق الاسلامية الى « ان المعتزلة هم اصحاب واصل بن عطاء الغزال ، لما اعتزل مجلس الحسن البصري يقران مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبت المنزلة بين المنزلتين ، فطرده ، فاعتزله وتبعه جماعة سموها المعتزلة »^(١) .

ولكن هل كان هذا اول استعمال لهذه الكلمة واول اطلاق لها ؟ وهل كان واصل واصحابه اول فرقة سمت بها ؟ ام ان هذه الكلمة كانت تطلق قبل هذا على غير واصل واصحابه ؟

تشير بعض المراجع التاريخية القديمة الى ان هذه التسمية كان لها معناها الخاص في لغة السياسيين في القرن الاول والنصف الاول من القرن الثاني ، فكان يستعمل للدلالة على الامتناع عن مناصرة احد الفريقين المتنازعين وعلى الوقوف موقف الحياد من القتال بين اصحاب الجمل واصحاب صفين .

فالنوبختي يذكر « ان فرقة من المسلمين اعتزلت مع سعد بن مالك وهو سعد ابن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن سلمة الانصاري ، واسامة بن زيد ابن حارثة الكلبي مولى رسول الله (ﷺ) فان هؤلاء اعتزلوا عن علي عليه السلام وامتنعوا عن محاربته والمحاربة معه بعد دخولهم في بيعته والرضا به ،

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٥٧ .

فسموا المعتزلة وصاروا اسلاف المعتزلة الى آخر الابد وقالوا : لا يحل قتال علي ولا القتال معه « (١) .

وفي تاريخ الطبري ما يشير الى ان هذه التسمية « المعتزلة » كانت تطلق على الجماعة التي اعتزلت الفريقين المتحاربين من المسلمين فهو يقول عند ذكره لحوادث السنة السادسة والثلاثين من الهجرة : « ان قيس بن سعد كتب الى علي يقول : ان فرقة وقفت واعتزلت الى خربتها وقالوا : ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم ، والأف نحن على جريمتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا » (٢) .

كذلك فالمغيرة يقول لمحمد وطلحة وسعيد بن سعد : « الرأي والله الاعتزال » (٣) .

وفي تاريخ الطبري ايضاً « واهل البصرة فرق : فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع علي ، وقد لا ترى القتال مع احد من الفريقين . وجاءت عائشة رضي الله عنها من منزلها التي كانت فيه حتى نزلت في مسجد الحُدَّان في الازد ، وكان القتال في ساحتهم . ورأس الازد يومئذ صبرة بن شبحان فقال له كعب بن سوران الجموع اذا تراءوا لم تستطع وانما هي بحور تدفق فاطعني ولا تشهدهم واعتزل بقومك فاني اخاف الا يكون صلح . . . ودع هذين الغارين من مضر وربيعه فهما اخوان » (٤) .

وفي تاريخ الطبري ايضاً وفي سنة ٣٦ هـ كتب قيس بن سعد الى علي يقول : « ان قبلي رجالا معتزلين قد سألوني ان اكف عنهم وان ادعهم على حالهم حتى يستقيم امر الناس » (٥) . وقد وردت لفظة المعتزلة « يسمى المحايدون الذين لا ييغون نصر فريق على آخر باسم القوم المعتزلين » (٦) .

١ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٤٤٢ .

٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٢ .

٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٠٣ .

٥ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٤ .

٦ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٥٧ .

وكذلك حينما اجتمع المحكمون للفصل بين علي ومعاوية قال المغيرة بن شعبة (احد المعتزلة) لعمر بن العاص : « يا ابا عبد الله ، اخبرني عما اسألك عنه . كيف ترانا معشر المعتزلة ؟ فاننا شككنا في الامر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ، ورأينا ان نستأني ونثبت حتى تجتمع الامة ؟ قال اراكم معشر المعتزلة خلف الابرار وامام الفجار »^(١) .

واخيراً ذكر الطبري في حوادث ١٤٤ هـ : « وقد ذكر ان محمدا (بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب) كان يذكر ان ابا جعفر ممن بايع له ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطراب امر بني مروان مع سائر المعتزلة الذين كانوا معهم هنالك »^(٢) .

والى جانب الطبري نرى صاحب الاغانى^(٣) عند كلامه على احد الشعراء يصف والده بقوله « وكان والد الشاعر ايمن بن ضريم احد من اعتزل حرب الجمل وصفين ، وما بعدهما من احداث فلم يحضرها » .

ويذكر النوبختي ايضاً « ان الاحنف بن قيس التميمي اعتزل (الفتنة بين علي ومعاوية) بعد ذلك في خاصة قومه من بني تميم لا على التدين بالاعتزال ، لكن على طلب السلامة من القتل وذهاب المال وقال لقومه : اعتزلوا الفتنة اصلح لكم »^(٤) .

اذاً فمن ملاحظة جميع هذه الاقوال نرى ان استعمال لفظة « معتزلة » قد اطلقت على جماعة من المسلمين لزموا دورهم ولم ينضموا الى احد الفريقين المتحاربين اي انهم لم ينغمسوا في حرب الجمل ولم يشتركوا في وقعة صفين ، وهي مسائل سياسية تدور حول قتل عثمان وقتلته والاقتصاص منهم ، وعلي واستحقاقه

١ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٧ .

٢ - المصدر السابق ج ٧ ص ٥١٧ .

٣ - ابو الفرج الاصفهاني : الاغانى ج ٢١ ص ١٠ .

٤ - النوبختي : فرق الشيعة ص ٥ .

للخلافة ، ومعاوية وهل هو اولى بالخلافة من علي وهذا الانقسام بين الناس كان انقسام احزاب سياسية .

وان تسمية هذه الطائفة « بالمعتزلة » كانت تسمية سياسية لا دينية كما يشير النوبختي آنفاً (لا على التدين بالاعتزال) واقصد بالسياسة هنا ، لم تعتزل المسلمين لخلاف على امر من امور العقيدة ، وانما كان اعتزالهم للطرفين المتحاربين في سبيل الحكم . ولكن من الحق ان نقرر ان جميع المسائل في ذلك العصر كانت مصبوغة صبغة دينية فالحزب او الطائفة التي اطلق عليها في الصدر الاول للاسلام إسم المعتزلة كانت تمثل فكرة سياسية مصبوغة بالدين .

اما تسمية الفرقة الكلامية « المعتزلة » . بهذا الاسم فبعض كتب الفرق الاسلامية تعزو سبب هذه التسمية الى قول الحسن البصري لواصل بن عطاء حين كان الاختلاف على مرتكب الكبيرة وانه لا مؤمن ولا كافر بل هو فاسق « اعتزلنا »^(١) .

اما عبد القادر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق فيورد سبباً آخر لهذه التسمية فهو يقول : « ان الحسن البصري لما طرد واصلاً من مجلسه واعتزله عند ساريه من سواري مسجد البصرة وانضم اليه عمرو بن عبيد قال الناس يومئذ فيهما : انهما قد اعتزلا قول الامة » وسمي اتباعهما من يومئذ معتزلة «^(٢) اي انهما خالفا الاقوال السابقة في مرتكب الكبيرة حين جعلاً مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلي الكفر والايمان ، ذلك ان المرجئة كانت تقول انه مؤمن^(٣) والازارقة من الخوارج كانت تقول انه كافر^(٤) وكان الحسن البصري يقول انه منافق^(٥) .

١ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٥٧ .

٢ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٨ .

٣ - المصدر السابق : ص ٩٧ .

٤ - الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٧٠ .

٥ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٩٧ .

اما السعودي في مروج الذهب^(١) فله رأي آخر فهو يقول انهم سموا « بالمعتزلة ، من الاعتزال وذلك لقولهم بان صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين فالمعتزلة على رأيه هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة . ويؤيد هذا المعنى ما ورد في تاج العروس^(٢) » من ان المعتزلة فرقة من القدرية زعموا انهم اعتزلوا فئتي الضلالة عندهم اي (اهل السنة والجماعة) والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلاً » .

والآن وبعد ان استعرضنا هذه الاقوال التي تكلمت في سبب اطلاق لقب المعتزلة على هذه الفرقة فاننا نرجح قول السعودي في ان هذه الطائفة قد سميت بالمعتزلة من الاعتزال وذلك لانها رفضت او اعتزلت عن صراع سياسي الا وهو الصراع بين معاوية وعلي ، وهو اعتزال سياسي لما يجري من احداث وصراعات في ذلك الوقت . وهنا نرى قاسماً مشتركاً يجمع بين معتزلي الصدر الاول ومعتزلة واصل بن عطاء وهو اتخاذ موقف حيادي من احداث العصر . وهذا ما ذهب اليه بعض المستشرقين الذين بحثوا في نشأة المعتزلة وآرائها .

فقد رأى المستشرق نلينو^(٣) ان هؤلاء المعتزلة الجدد اصحاب واصل انما هم الامتداد لحركة الزهاد الذين انشقوا على اطراف الصراع السياسي : علي واصحاب الجمل وعلي ومعاوية واعتزلوا هذا الصراع . فلقد اتخذ هؤلاء المعتزلون القدامى موقفاً محايداً من احداث ذلك الصراع واطرافه . ولما كان واصل واصحابه قد اتخذوا موقفاً وسطاً بين اهل السنة والخوارج من تقييم احداث الصراع بين علي وخصومه فلم يكفرهم جميعاً كما قال الخوارج ولم يصوبهم جميعاً كما انتهى الى ذلك اهل السنة وانما قال بفسق احد الفريقين دون تحديد^(٤) فكانهم بهذا قد اعتزلوا الفريقين المتحاربين

١ - السعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١ .

٢ - نلينو : « بحوث في المعتزلة » المنشور في كتاب « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » ترجمة الاستاذ عبد الرحمن بدوي ص ١٩٠ وما بعدها .

٣ - البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٠ .

كما اعتزل سلفهم الفريقين المتحاربين . فكانوا استمراراً وامتداداً لاسلافهم المعتزلين .

وينتهي بعد هذا الى انهم هم الذين سموا انفسهم بهذا الاسم وان تسميتهم به تسمية سياسية لا دينية ، وان اول مسألة في تاريخ هذه الفرقة او نقطة البدء في حياتهم هي مسألة مرتكب الكبيرة . هذا ما ذهب اليه هذا المستشرق بعد ان محص اراء غيره^(١) من المستشرقين في تحليل هذه التسمية ، وبعد ان ابطلها جميعاً .

وقد كان للاوضاع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر الاثر الكبير في نشأة المعتزلة المتكلمين واهم العوامل التي ادت الى قيام هذه الفرقة اربعة كما صنفها جار الله^(٢) وهي حل مشاكل الخلاف بين المسلمين ، الدفاع عن الدين الاسلامي ، اثر الديانات الاخرى ، درس الفلسفة .

فالمشكلة التي اثارت اكثر من سواها اهتمام المسلمين هي مشكلة مرتكبي الكبائر التي مادون الكفر . فقد كثر اقدام الناس على ارتكاب الكبائر بسبب اختلاف القادة على الخلافة وما جرّ وراءه من فتن ادت الى مصرع عثمان بن عفان ونشوب الحرب بين علي بن ابي طالب وبين اصحاب الجمل ثم بينه وبين معاوية . فتفرق المسلمون احزاباً وشيعاً وراحوا يكفرون بعضهم بعضاً . فقد اختلف موقف المسلمين من مرتكبي الكبائر فاهل السنة والجماعة كانوا يقولون في مرتكب الكبيرة التي ما دون الشرك من ملة الاسلام انه مؤمن « فلا يكفرون احداً من اهل القبلة بذنب يرتكبه ، كنحو الزنا والسرقة وما اشبه ذلك من الكبائر ، وهم بما معهم من الايمان مؤمنون وان ارتكبوا الكبائر . والايمان - عندهم - هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر . . . »^(٣) .

١ - نلينو : بحوث في المعتزلة « يرى بعض المستشرقين ان السبب في تسميتهم هذا الاسم هو قولهم بمذهب القدر (ص ١٧٩) ويذهب بعضهم الى ان العلة في هذه التسمية هو التقوى والتعبد (ص ١٧٨) .

٢ - زهدي جار الله : المعتزلة ص ١٤ وما بعدها .

٣ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٤٧ .

اما الخوارج فقد رفضوا حكم اهل السنة في مرتكب الكبيرة وبالغوا في احكامهم فكفروا جميع من عداهم وقالوا « ان كل كبيرة كفر ، وان الدار دار كفر يعنون دار مخالفيهم ، وان كل مرتكب معصية كبيرة ففي النار خالداً مخلداً »^(١) وهم « يكفرون معاوية وعمر بن العاص وابا موسى الاشعري »^(٢) .

اما الطائفة الثالثة من المسلمين وهم المرجئة فقد اتخذوا موقفاً سلبياً من الاحداث الجارية منهم لا يوافقون الخوارج في احكامهم بل تساهلوا في احكامهم على الجميع فجعلوا الايمان مجرد الاعتقاد بالله وبرسله وارجأوا الثواب والعقاب الى الله فكانوا يقولون : « ان صاحب الكبيرة من امة الاسلام مؤمن لما فيه من معرفته بالرسول والكتب المنزلة من الله تعالى ولعرفته بان كل ما جاء من عند الله حق »^(٣) .

وتعاضم الخلاف بين الفرق الاسلامية في هذا الصدد ، واحتدم الجدل ، وصارت تعقد في مساجد البصرة وغيرها حلقات المناظرة التي كان اهمها واشهرها حلقة الحسن البصري وقد حاول الحسن البصري ان يحل هذه المشكلة فقال : « ان مرتكب الكبيرة منافق »^(٤) وفي ذلك الجو ظهر المعتزلة الذين وقفوا موقفاً وسطاً من الاحكام المطروحة فقالوا وعلى الاخص واصل واتباعه بالمنزلة بين المنزلتين اي « ان المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر بل يسمى فاسقاً »^(٥) .

وعلى هذا الرأي اضطر المعتزلة ان يطبقوا نظريتهم على المتنازعين على الخلافة فحاضوا غمار السياسة وبحثوا في امر خلافة ابي بكر وعمر وعلي ، هل خلافتهم صحيحة ؟ وايهم افضل . وقد حكى ابن ابي الحديد رأي المعتزلة في ذلك فقال : « اتفق شيوخنا كافة ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على ان بيعة ابي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وانها لم تكن عن نص وانما

١ - الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٧٠ .

٢ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٤ .

٣ - البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٩٨ .

٤ - البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٩٧ .

٥ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

كانت بالاختيار . . . واختلفوا في التفضيل ، فقال قدماء البصريين كعمرو بن عبيد ، والنظام ، والجاحظ ، وثمامة بن الاشرس وهشام الغوطي ، وابي يعقوب الشحام ، وجماعة غيرهم : ان ابا بكر افضل من علي ، وهؤلاء يجعلون ترتيب الاربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة ، وقال البغداديون قاطبة ، قدمائهم ومتأخروهم ، كبشر بن المعتمر ، وابن صبيح ، وجعفر بن مبشر ، وابي جعفر الاسكاني ، وابي الحسن الخياط ، وابي القاسم البلخي وتلامذته : ان عليا افضل من ابي بكر . . وذهب كثير من الشيوخ الى التوقف فيهما وهو قول واصل بن عطاء ، وابي الهذيل العلاف ^(١) وهما - وان ذهب الى الوقف بين علي وبين ابي بكر وعمر - قاطعان على تفضيله على عثمان اما موقف المعتزلة من عثمان وقتلته فقد وقف اكثر المعتزلة في الحكم في تلك المسألة فأبو الهذيل العلاف وهو احد زعماء المعتزلة يقول : « لا ندري ، اقتل عثمان ظالماً او مظلوماً » ^(٢) .

فاذا انتقلنا الى الحروب التي كانت بين علي وخصومه ، نرى واصل بن عطاء وهو « شيخ المعتزلة وقديمها واول من اظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين » ^(٣) يقف في الحكم على الفريقين المتنازعين في يوم الجمل في يوم الجمل ولا يدري ايها فاسق . فيقول : « ان فرقة من الفريقين فسقة لا باعياهم ، وانه لا يعرف الفسقة منهما ، واجاز ان يكون الفسقة من الفريقين عليا واتباعه كالحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر وابي ايوب الانصاري وسائر من كان مع علي يوم الجمل ، واجاز كون الفسقة من الفريقين عائشة وطلحة والزبير وسائر اصحاب الجمل » ^(٤) .

كذلك فقد اختلف موقف بعض زعماء المعتزلة في القتال بين الصحابة فقال بعض المعتزلة « ابراهيم النظام » و« بشر بن المعتمر » في : ان عليا كان مصيبا في حروبه ، وان من قاتله كان على الخطأ ، فخطئوا طلحة والزبير وعائشة

١ - ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٧ .

٢ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٤٣ .

٣ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١

٤ - البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٠٠

ومعاوية « (٣) . وقال « ضرار » و« ابو الهذيل » و« معمر » نعلم ان احدهما مصيب والاخر مخطيء ، فنحن نتولى كل واحد من الفريقين على الانفراد ، وانزلوا الفريقين منزلة المتلاعنين اللذين يعلمون ان احدهما مخطيء ، ولا يعلمون المخطيء منهما ، هذا قولهم في علي وطلحة والزبير وعائشة ، فاما معاوية فهم له مخطئون غير قائلين بامامته « (١) » .

ولم يكتف المعتزلة بالحكم على المتحاربين على الخلافة فحسب بل تعرضوا لموضوع الامامة وشرط اختبار الامام فقد كانت المعتزلة تذهب الى « ان الامامة اختيار من الامة وذلك في ان الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وانما اختيار ذلك مفوض الى الامة تختار رجلاً منها ينفذ فيها احكامه سواء اكان قرشياً او غيره من اهل ملة الاسلام واهل العدالة والايمان ، ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وذهبوا الى ان الامامة تجوز في قريش وغيرهم من الناس « (٢) » . فالمعتزلة في قولهم بان اختيار الامام مفوض الى الامة يخالفون الشيعة الذي كانوا يعتبرون « ان الامامة لا تكون الا نصاً من الله ورسوله على عين الامام واسمه واشتهاره « (٣) » واختلفت المعتزلة فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش ، فاشتراطها بعضهم ولم يشترطها قوم منهم وقالوا : ان حديث « الأئمة من قريش » لم يكن متواتراً ، اذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر كان يجوز امامة المولى فقد قال : « لو كان سالم - مولى حذيفة - حياً لوليته « (٤) » وبالغ ضرار بن عمرو من المعتزلة - فقال : « اذا اجتمع قريشي ونبطي ولينا النبطي وتركنا القرشي لانه اقل عشيرة واقل عدداً فاذا عصى الله وارادنا خلعه ، كانت شوكته اهون نظراً للإسلام « (٥) » .

-
- ١ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ١٤٥
 - ٢ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٤٥ والنوبختي : فرق الشيعة ص ١٣ .
 - ٣ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .
 - ٤ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٢
 - ٥ - المصدر السابق : ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٢
 - ٦ - النوبختي : فرق الشيعة ص ١٠

وأما الاراء التي اجمع عليها المعتزلة فقد ذكرها المسعودي فقال : « وليس يستحق اسم الاعتزال الا بالاعتقاد بالاصول الخمسة وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والاسماء والاحكام وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ويضيف بعد ذلك فيقول : « ومن اعتقد في هذه الاصول الخمسة كان معتزلياً »^(١) .

وقد كانت نظرتهم في توحيد الله نظرة في غاية السمو والرفقة فطبقوا قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ابداع تطبيق وفصلوه خير تفصيل وكانت كل نقطة تسلم الى التي تليها فيسيرون فيها من غير خوف من النتائج مهما كانت . متى اطمأنوا الى انهم يسايرون العقل ، فهم من الناحية العقلية جريئون ، يقررون ما يرشد اليه في شجاعة واقدام ، وهم امام النقل يسلمون ما يوافق منها البرهان العقلي ، ويؤولون ما يخالفه .^(٢) .

وهكذا نرى ان للمعتزلة امتيازات من بين فرق المتكلمين بحرية الرأي ، والاعتماد على العقل ، فهم دائماً يعتمدون على العقل وعلى الاقناع ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو من أهم مبادئهم ومن وسائل الاقناع العقلي لديهم . ولكن يبقى « للمعتزلة الفضل في انهم كانوا الاوائل في الاسلام الذين رفعوا العقل الى مرتبة ان يكون مصدراً لمعرفة الدين ، بل هم اول من اعترف صراحة بقيمة الشك كباعث اول على المعرفة »^(٣) .

١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١ - الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٣٢٨

٢ - احمد امين :- ضحى الاسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ .

٣ - جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص ١١٨

الخاتمة

وهكذا نرى نشأة الفرق الاسلامية ، قد وجدت مع تكوين المجتمع الاسلامي ، واخذت تتشعب مع تطوره على مر العصور ، وكانت تتخذ اشكالاً متعددة . فتارة تظهر في جماعات دينية متزمتة ، واخرى في فرق متساهلة معتدلة ، وتارة في تجمعات اجتماعية او اقتصادية ناقمة ، او في جماعات طامحة للسلطة والحكم وطوراً في فئات موتورة ناقمة . على انها جميعاً كانت تستقي من نبع السياسة الذي لا ينضب ولكنه يغلف باشكال تناسب البيئة والعصر والميول السائدة ولذلك نرى انها وجوه متعددة لاحزاب سياسية . وكما ان المجتمع الاسلامي قد بني على اسس كان لكثير منها جذور في الجاهلية وحياة البداوة ، لذلك استمدت الحزبية السياسية غذاءها من العصبية القبلية التي كانت النواة الاولى لتلك الحزبية وما يتفرع عن تلك العصبية من غزو وثار وولاء واحلاف وغير ذلك من المؤسسة القبلية .

فالمجتمع العربي قبل الاسلام كان مجتمعاً قبائلياً يقوم على الغزو والحروب المستمرة لاسباب اقتصادية واجتماعية . واذا ما قامت فيه تحالفات فهي نتيجة دوافع امنية او اقتصادية . وكان للعصبية اثرها الفعال في نفوس ابناء ذلك المجتمع . كذلك ففي المجتمع الاسلامي نراها تمتاز بالمشكلات التي نشأت في المجتمع الجديد وتتداخل في امور السلطة والسلطان والمصالح الشخصية والعائلية والاجتماعية التي كانت تصطبغ ببصغة دينية في كثير من الاحيان ، وما هي في الواقع الا امور سياسية تمحورت حول قضايا مهمة تتعلق بالخلافة ، والولاية ، وتوزيع المغنم ، وامتلاك زمام السلطة والقرابة وغيرها من امور الدين والدنيا . هذا الى جانب العناصر

الخارجية والمؤثرات الاعجمية التي دخلت المجتمع الجديد بعد الفتوحات الاسلامية .

على ان فكرة الحزبية ظهرت بشكل اوضح بعد تطور المجتمع الاسلامي نتيجة الاحداث والصراعات التي توالى عليه . ففي الفترة التي كان فيها الرسول المرجع الاول والاخير للأمور التي تعرض للمسلمين رأينا ان الجماعة الاسلامية كانت منقسمة في اتجاهين مختلفين : جماعة المهاجرين وجماعة الانصار . وكان لكل جماعة كيانها الخاص الذي تتمسك به وتسعى للمحافظة عليه .

وبعد وفاة الرسول برزت اتجاهات جديدة اتخذت اشكال احزاب ثلاثة هي : حزب الانصار وحزب المهاجرين وحزب بني هاشم . ثم اخذت هذه الاتجاهات الحزبية تتعدد وتشتق لنفسها طرقا جديدة معتمدة على وسائل دينية احيانا ودينية في احيان اخرى . فالتنازع على خلافة الرسول كان في رأس التحالفات والتحركات التي غذت الاتجاهات الحزبية وكذلك خلال انتقال مقاليد الخلافة من خليفة الى آخر . وقد بلغت الحزبية ذروتها في ايام الخليفة الراشدي الثالث حيث الفتنة الكبرى وایام الخليفة الراشدي الرابع في معركتي الجمل وصفين حيث تبلورت معالم الحزبية السياسية وظهرت جلية في نشوء الاحزاب السياسية الثلاثة (حزب بني امية - حزب الخوارج - حزب الشيعة) . وكانت تلك الاحزاب الدعائم التي قامت على أساسها الفرق الاسلامية المتعددة .

ومهما يكن من أمر فانه كان لنشأة تلك الاتجاهات الحزبية وجهان : احدهما ايجابي يقوم على التنافس والتسابق بين اصحاب القضية ومن شأنه ان يدفع مفكري الاحزاب الى قدح زناد العقل وتأليف المجلدات الادبية والدينية والفلسفية لاثبات او دعم اتجاهاتهم المتعددة ، مما ترك لنا ارثا ادبياً وفكرياً لا يفنى ، متعدد الاتجاهات والميول ويشكل غذاء فكرياً للأجيال الناشئة .

والثاني سلبي يتمثل في اضعاف القوى بتشتتها وتوزعها في كل اتجاه ، اضعف الى ذلك الخسائر المادية والبشرية والمعنوية التي تخلفها النزاعات والصدامات نتيجة اختلاف الاهواء والاراء .

المصادر والمراجع

اولاً : المصادر الاولية

- ١ - القرآن الكريم
الاثير - ابن - (٦٣٠ هـ - ١٢٣٨ م) علي بن احمد ابو الحسن .
- ٢ - الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً (القاهرة ١٣٥٦ هـ)
- ٣ - اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة - طبعة دار الشعب) .
الازرقى (٢٢٣ هـ) محمد بن عبد الله ابو الوليد .
- ٤ - اخبار مكة (بيروت ١٩٦٤) .
الاشعري (٣٣٠ هـ) ابي الحسن علي بن اسماعيل .
- ٥ - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
(القاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) الطبعة الثانية .
الاصفهاني (٣٥٦ هـ - ٩٦٧ م) علي بن الحسين ابو الفرج .
- ٦ - الاغانى ٢١ جزءاً (بيروت ١٩٥٧ م) .
- ٧ - مقاتل الطالبين (النجف ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م) .
البخاري (٢٥٦ هـ) محمد ابو عبد الله .
- ٨ - الجامع الصحيح ٩ اجزاء (ثلاث مجلدات) القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨)
طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي صادر عن دار احياء التراث العربي -
بيروت .

- البغدادى (٤٢٩ هـ - ١٠٣٧ م) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى ابو منصور .
- ٩ - كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم - تحقيق محمد بدر - (القاهرة - لا تاريخ) .
- البلاذري (٢٧٩ هـ) أحمد بن يحيى .
- ١٠ - فتوح البلدان (القاهرة ١٩٥٦ م) .
- الجاحظ (٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م) ابو عثمان عمرو بن بحر .
- ١١ - البيان والتبيين ٤ اجزاء تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - الطبعة الثانية (القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م) .
- الحديد - ابن ابي - (٦٥٥ هـ) عبد الحميد بن هبة الله .
- ١٢ - شرح نهج البلاغة ٢٠ جزءاً (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم) دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - (القاهرة ١٩٦٥ م) - الطبعة الثانية .
- خلدون - ابن - (٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م) عبد الرحمن .
- ١٣ - مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦٧ م) الطبعة الثالثة .
- سعد - ابن - (٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م) محمد بن سعد كاتب الواقدي .
- ١٤ - الطبقات الكبرى ٨ اجزاء (بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧) .
- السمعاني (٥٦٢ هـ - ١١٦٦ م) الامام ابن سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور .
- ١٥ - الانساب (الهند ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م) الطبعة الاولى .
- السيوطي (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن ابي بكر .
- ١٦ - تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٥٢ م) الطبعة الاولى .
- الشهرستاني (٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) ابو الفتح محمد بن عبد الكريم .

- ١٧ - الملل والنحل ٣ اجزاء (القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨ م) الطبعة الاولى الطبري (٣١٠ هـ) محمد بن جرير ابو جعفر .
- ١٨ - تاريخ الرسل والملوك ٨ اجزاء تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٧١ م) .
- ١٩ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٠ جزءاً (القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) ، الطبعة الثالثة .
- عبد ربه - ابن - (٣٢٨ هـ) احمد ابو عمر .
- ٢٠ - العقد الفريد ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) .
- العبري - ابن (١٢٢٦ م - ١٢٨٦ م) غريغوريوس الملطي .
- ٢١ - تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨ م) .
- علي بن ابي طالب .
- ٢٢ - نهج البلاغة ٣ اجزاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد (مصر - مطبعة الاستقامة - لا تاريخ) .
- قتيبة - ابن - (٢٧٦ هـ) محمد عبد الله بن مسلم
- ٢٣ - الامامة والسياسة جزءان في كتاب واحد (القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م) الطبعة الثانية .
- القلقشندي (٨١٢ هـ - ١٤١٨ م) احمد بن علي ابي العباس .
- ٢٤ - صبح الاعشى في صناعة الانشاء - القاهرة (الجزء الاول من ١٤ جزءاً) .
- الكلبي (٢٠٤ هـ - ٨١٩ م) ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب .
- ٢٥ - كتاب الاصنام ، تحقيق احمد زكي باشا - القاهرة - الطبعة الثانية .
- ماجة - ابن - (٢٧٣ هـ) ابو عبد الله محمد بن يزيد .
- ٢٦ - سنن ابن ماجه (مصر - ١٩٠٥ م) .

- الماوردي (٤٥٠ هـ - ١٠٥٧ م) ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري .
- ٢٧ - أدب الدنيا والدين . تحقيق مصطفى السقا (بيروت ١٩٧١) دار الكتب العلمية ، الطبعة الرابعة .
- المبرد (٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م) ابو العباس محمد بن يزيد .
- ٢٨ - الكامل في اللغة والأدب جزآن (القاهرة ١٣٠٨ هـ) الطبعة الاولى .
- المسعودي (٣٤٦ هـ) ابو الحسن علي بن الحسين .
- ٢٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر جزآن (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .
- المنقري : (٢١٢ هـ) نصر بن مزاحم .
- ٣٠ - وقعة صفين (القاهرة ١٣٨٢ هـ) .
- النوبختي : (٢٣٢ هـ - ٨١٧ م) ابو محمد الحسن بن موسى .
- ٣١ - فرق الشيعة ، تحقيق هلموت ريتز - مطبعة الدولة اسطنبول ١٩٣١ .
- هشام - ابن - (٢١٨ هـ - ٨٢٣ م) عبد الملك ابو محمد .
- ٣٢ - السيرة النبوية ٤ اجزاء (القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
- الهمداني : (٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م) ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود .
- ٣٣ - صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨١ م) .
- ياقوت : (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) شهاب الدين ابو عبد الله الحموي الرومي .
- ٣٤ - معجم البلدان ٨ اجزاء (مصر ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٦ م) .
- يوسف - ابو - (١٨٢ هـ) يعقوب بن ابراهيم .
- ٣٥ - كتاب الخراج (القاهرة ١٣٨٢ هـ) الطبعة الثالثة .

المراجع العربية الحديثة

امين : احمد

- ١ - فجر الاسلام (القاهرة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م) الطبعة السابعة .
- ٢ - ضحى الاسلام ج ٣ (بيروت - دار الكتاب العربي) الطبعة العاشرة .

الجابري : محمد عابد

- ٣ - العصبية والدولة (الدار البيضاء ١٩٧٩ م) دار النشر المغربية - الطبعة الثانية .

جار الله : زهدي

- ٤ - المعتزلة (القاهرة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) .

حسن : ابراهيم حسن

- ٥ - تاريخ الاسلام السياسي ٤ اجزاء (القاهرة ١٩٦١ م) الطبعة السادسة .

حسين : طه

- ٦ - المجلد الرابع من الاعمال الكاملة : الخلفاء الراشدون (بيروت ١٩٧٣ م) .
- ٧ - المجلد الرابع من الاعمال الكاملة : في الادب والنقد (بيروت ١٩٧٣ م) .

الخالدي : طريف

- ٨ - دراسات في تاريخ الفكر العربي والاسلامي (بيروت ١٩٧٧ م) دار الطليعة - الطبعة الاولى .

الخضري : الشيخ محمد

٩ - محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ٤ اجزاء (القاهرة ١٣٥٤ هـ) الطبعة الرابعة .

زيدان : جرجي

١٠ - تاريخ التمدن الاسلامي مجلدان (بيروت ١٩٦٧ م) .

الشايب : احمد

١١ - تاريخ الشعر السياسي (القاهرة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) الطبعة الخامسة .

عبد السلام : احمد

١٢ - دراسات في مصطلح السياسة عند العرب (تونس ١٩٧٨ م) الشركة التونسية للتوزيع .

علي : جواد

١٣ - تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ (بغداد ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٠ م) .

١٤ - تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ (بغداد ١٩٥٤ م) .

عمارة : محمد

١٥ - الخلافة ونشأة الاحزاب السياسية (بيروت ١٩٧٧ م) الطبعة الاولى .

القاضي : وداد

١٦ - الكيسانية في التاريخ والادب (بيروت ١٩٧٤ م) دار الثقافة .

قدورة : زاهية

١٧ - عائشة ام المؤمنين (بيروت ١٩٧٢ م) .

١٨ - الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي (بيروت ١٩٧٢ م) الطبعة الاولى .

١٩ - العصبية في المجتمع العربي نشأتها واثرها - محاضرات الندوة اللبنانية ١٩٥٤
السنة الثامنة - النشرة السادسة - نيسان .

النص : احسان

٢٠ - العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي دار اليقظة العربية .

المراجع الاجنبية المترجمة الى العربية

ارنولد : توماس

١ - الدعوة الى الاسلام (القاهرة ١٩٤٧ م) الطبعة الثانية ترجمة حسن ابراهيم حسن وغيره :

٢ - الخلافة : دار اليقظة العربية .

ايف لاکوست

٣ - العلامة ابن خلدون (بيروت ١٩٧٤ م) ترجمة الدكتور ، ميشان سليمان - دار ابن خلدون .

بروكلمان - كارل

٤ - تاريخ الشعوب الاسلامية (بيروت ١٩٧٧ م) ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي .

بلاشير : ريجنس

٥ - تاريخ الادب العربي ج ١ (دمشق ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م) تعريب الدكتور ابراهيم الكيلاني .

جولدتسيهر : اجناس

٦ - العقيدة والشريعة في الاسلام (القاهرة ١٩٤٦ م) ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى - عبد العزيز عبد الحق - علي حسن عبد القادر - الطبعة الاولى .

حتى : جبور

٧ - تاريخ العرب المطول (بيروت ١٩٧٤ م) ترجمة - حتى - جبور - جرجي .

دوزي : رينهارت

٨ - تاريخ مسلمي اسبانيا ج ١ (القاهرة ١٩٦٣ م) ترجمة حسن حبشي
جمال محرز - مختار العبادي .

فلهاوزن : يوليوس

٩ - تاريخ الدولة العربية (القاهرة ١٩٦٨ م) سلسلة الالف كتاب - ترجمة محمد
عبد الهادي ابو ريدة .

١٠ - أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام - الخوارج والشيعة
(١٩٥٨ م) - ترجمة عبد الرحمن بدوي .

فلوتن - فان

١١ - السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية (القاهرة ١٩٦٥ م)
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد ابراهيم زكي .

نلينو - كارلو الفونسو

١٢ - بحوث في المعتزلة نشر ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية
(القاهرة ١٩٤٦ م) الطبعة الثانية ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .

الموسوعات والمعاجم

ابن منظور : ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

- ١ - لسان العرب (بيروت ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م) .
- ٢ - دائرة المعارف الاسلامية .
- ٣ - الموسوعة الاسلامية .
- الزبيدي .
- ٤ - تاج العروس ٢٠ جزءاً (القاهرة ١٣٠٦) الطبعة الاولى .

المراجع الاجنبية

Dozy, Rein hart

- 1 — **Essai sur l'histoire de l'islamisme.** Amesterdam; librairie oriental. 1966.

Lammens, Henri.

- 2 — **L'Arabie occidentale avant l'Hegire.** Beyrouth. 1928.
- 3 — **La mecque à la veille de l'Hegire.** Beyrouth. 1924.
- 4 — **Le berceau de l'islam.** Rome, 1914.
- 5 — « **Le triumvirat, Abou Bakr, Omar, Abou obaide.**». Beyrouth. 1910.

Muir, William.

- 6 — **the Caliphate its- Rise- Decline and fall.** Edinburgh, 1915.
Smith, Roberston
- 7 — **Kinship and marriage in early arabia.** Beyrouth, united Publishers, 1973.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : جذور الحزبية السياسية	٩
فترة ما قبل الاسلام	
الفصل الأول : بلاد العرب قبل الاسلام	١١
خريطة بلاد العرب قبل الاسلام	
القبائل العربية	١٨
انساب القبائل العربية	١٩
الفصل الثاني : العرب وانسابهم	٢١
الفصل الثالث : النظام القبلي والعصبة القبلية	٣٣
العصبة : لغوياً واجتماعياً وسياسياً	٣٧
الباب الثاني : ولادة الحزبية السياسية	٤٥
الفصل الأول : الاسلام وفكرة الحزبية	٤٧
الفصل الثاني : الخلافة ونشأة الحزبية السياسية	٦٣
الفصل الثالث : الابعاد الحزبية في عهدي ابي بكر وعمر	٨١
الباب الثالث : وضوح الرؤية الحزبية	٩٥
الفصل الأول : الفتنة الكبرى وابعادها الحزبية	٩٧

١٢١	الفصل الثاني : معركة صفين ونشأة الاحزاب السياسية
١٣٩	الفصل الثالث : نشأة الفرق الاسلامية :
	الشيعة
	الخوارج
	المرجئة
	المعتزلة
١٧٩	الخاتمة
١٨١	المصادر والمراجع

